الرّؤى والأحلامُ المقدسة

عصر الحروب الصليبية

الطبعة الأولى
1440 هـ
2019 م

اسم الكتاب: الرّؤى والأحلامُ المقدسة..عصر الحروب الصليبية
التأليف: أ.د/ إمام الشافعي محمد حمودي
موضوع الكتاب: دراسة تاريخية
المراجعة اللغوية عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 152 صفحة
عدد الملازم: 9.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/2427
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 632 - 9

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

الرّؤى والأحلامُ المقدسة

عصر الحروب الصليبية

تأليف

أ.د/ إمام الشافعي محمد حمودي

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

”

.....

“

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد النبي الهادي الأمين، وعلى آلـه وصحبه أجمعين.

وبعـد،

فإنّ الرؤى والأحلام ظاهرةٌ إنسانية، تتلازم مع الإنسان من الميلاد حتى الممات، ولا دخل للإنسان فيها، لذا فهو غيرُ محاسَب عمّا يراه في منامه، وأحيانًا تكون هذه الرؤى صادقة، فتقع في اليقظة كما شاهدها في المنام، وتلك أسمى مراتب الرؤى، وأحيانًا تكون كاذبة، لا تخرج عن مجرّد كونها أضغاث أحلام أو حديث للنفس، والرؤى والأحلام سواء كانت كاذبة ومخترعة، أو صادقة؛ فإنها تحمل في الغالب طابع التنبؤ بالمستقبل.

قبل أنْ تندلع شرارة الحركة الصليبية ضدّ الشرق الإسلامي، كان سكان الغرب الأوروبي- كغيرهم من البشر- لهم أحلامهم ورؤاهم، وكانت هذه الأحلام تسيطر على سلوك الكثيرين منهم، بل يمكن القول بأنّ انتشار المسيحية ذاته في أوروبا كان مبنيًّا على حلم. وقد كثرت هذه الرؤى والأحلام وذاع صيتها في كلّ أرجاء الغرب الأوروبي؛ لأنّ أصحابها ادّعوا أنّهم قد شاهدوا فيها السيد المسيح أو مريم العذراء، أو أحد القديسين، فاكتسبت هذه الرؤى والأحلام صفة القداسة، فصارت هذه الرؤى والأحلام جزءًا من الوجدان الأوروبي، فرفعت درجة الحماسة الدينية، والتي كانت بدورها من أهمّ دوافع الحركة الصليبية.

وعندما انتقل أبناءُ الغرب الأوروبي إلى الشرق الإسلامي بأسلحتهم وأمتعتهم، لم ينسوا أنْ يحملوا معهم أحلامَهم ورؤاهم المقدسة؛ فكانت سلاحًا أخطر من أسلحتهم القتالية،

حيث كانوا يستخدمونها للعب بعواطف العامة والسذج منهم، لدفعهم إلى الانخراط في سلك الحركة الصليبية الاستعمارية، وظلّت هذه الرؤى والأحلام المقدّسة ملازمةً للصليبيين طوال فترة وجودهم في الشرق الإسلامي، والتي استمرّت قرابة القرنين من الزمان.

كان الصليبيون إذا جابهتْهم مشكلة ما، في أي حملة من الحملات، أو تهدّدتهم المخاطر؛ تظهر الرؤى والأحلام المقدسة لتخرج الصليبيين من هذا المأزق، أو تدفع عنهم ذاك الخطر، وطالما كانت الحملة تسير أمورها بسهولة ويُسر، وتحقق أهدافها في هوادة، كانت تختفي هذه الأخبار عن الرؤى والأحلام المقدسة، وهذا دليلٌ كبير على أنّ هذه الرؤى والأحلام المقدسة كان يتمّ اختراعها ونسج خيوطها، حتى صارت من المحركات الأساسية في سير الحركة الصليبية.

هذا وقد قامت هذه الدراسةُ بالبحث في أهمّ هذه الرؤى والأحلام المقدسة التي تخلّلت فترة الوجود الصليبي في بلاد الشام، وكذلك فترة الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الأندلس المفقود، وذلك للتوافق والترابط في الدوافع والأهداف بين صليبيّ الشرق والغرب، وكان المنهج الذي سارت عليه الدراسة هو ذكرَ هذه الرؤى والأحلام، وبيان أثرها في الحركة الصليبية، ومعالجتها معالجة تاريخية موضوعية، بعيدًا عن التعصب والانحيازية، وبعيدًا عن المجاذبات والمجادلات الدينية.

أخيرًا، أرجو من الله العلي القدير أنْ يستفيد بهذا البحث كلّ مَن يقرأه، وأنْ يكون بداية لقراءة جديدةٍ للحركة الصليبية، والتي مازالت جذورها تمتدّ حتى الآن، وإنْ كانت في شكلٍ مختلف. والله الموفِّق، وهو من وراء القصد والسبيل.

مفهومُ الرؤى والأحلام المقدسة

لعلّه من الأهمّية بمكانٍ قبل الحديث عن الرؤى والأحلام المقدسة في عصر الحروب الصليبية؛ أنْ نبيّن مفهوم هذه الرؤى والأحلام، التي سيتوقّف عليها كلّ ما تمّ خلال هذه الحروب من أحداث، قد كان لهذه الرؤى والأحلام المقدسة الأثرُ الكبير فيها.

أمّا عن مفهوم الرؤى، فقد جاء في لسان العرب أنّ الرؤية: النظر بالعين والقلب... واسترأى الشيء: استدعى رؤيته.. والرؤيا: ما رأيته في منامك، وأرأى الرجل: إذا كثرت رؤاه وهي أحلامُه، وجمع الرؤيا: رؤى. وقد جاءت الرؤيا في اليقظة، وعليه فسّر قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَتِي أَرَيْنَاكَ إلّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[1] الإسراء: آية ٦٠.

فالرؤيا هي ما يراه الشخصُ في منامه، والرؤية بالهاء إدراكُ المرء بحاسّة البصر، وتطلق على ما يُدرك بالتخيل نحو أرى أنّ زيدًا مسافر، وعلى التفكير النظري نحو (إنّي أرى ما لا ترون)، وعلى الرأي وهو اعتقاد أحد النقيضين على غلبة الظن[2]. فالرؤيا من الله تبشير أو تحذير، فهي ذات مضمون يلقيه الله في قلب عبدِه ليكون على بصيرة من أمره في شيء أصابه أو سيصيبه رحمةً منه عليه، لذا لم يكدْ ينسى الرائي من رؤياه شيئًا، وقلّما يرى الإنسان رؤيا تحتوي مادتُها على لغة وكلام، وإنّما الغالب أنّ النائم يرى صورًا لأحداث ووقائع ماضية أو مستقبلية؛ ولهذا سميت رؤيا[3]. والرؤيا الصادقة هي رؤيا الأنبياء ومَن تبعهم مِن الصالحين، وقد تقعُ لغيرهم، وهي تقع في اليقظة على وفق ما وقعت في النوم[4].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثانية١٩٩٧م. مادة رأى.

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تبويب وتصحيح/ محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة- بيروت. لم تذكر سنة الطبع. جـ١٢ ص٣٥٢.

(٣) د/ محمد بكر إسماعيل: تفسير الأحلام في ضوء الإسلام- دار المنار- القاهرة- الطبعة الأولى٢٠٠٢م. ص٦- ١٨.

(٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري. جـ١٢ ص٣٥٤.

أمّا عن مفهوم الرؤى في الفكر المسيحي، فهناك سفر الرؤيا أو «الحلم»، والذي يشغل الفصل السابع من كتاب دانيال، الذي تمّ تأليفه في نحو عام ١٨٥ق.م[١] فالرؤيا apocalypse هي التي يرى فيها الإنسان كائنًا أخيريًّا أو ما وراء التاريخ، وقد استعملت في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية لتسمية السفر الأخير من أسفار العهد الجديد، علمًا بأنّه كشف لأسرار تتعلق بسير التاريخ وآخر الأزمنة، وهو مِن وضْع القديس يوحنا[٢]. وجاء في كتاب المحيط الجامع في الكتاب المقدس أنّ الرؤيا تعود إلى فعل رأي، وهذه الرؤية لا تتمّ بالعين المجردة، بل ترتفع إلى مستوى المخيّلة في الرؤى المنحولة، وإلى مستوى الإيمان في الكتب القانونية، وكلّها مطبوعة بالفن الجلياني «جلا: أي كشف»، الذي ينطلق من الرموز والصور ليحمل وحيًا عن مصير البشرية[٣].

أمّا عن مفهوم الأحلام، فجاء في لسان العرب أنّ الحلم هو الرؤيا، والجمع أحلام، يقال: حلم يحلم إذا رأى في المنام، وتحلّم إذا ادّعى الرؤيا كاذبًا، والرؤيا والحلم عبارة عمّا يراه النائم في نوْمه من الأشياء، ولكنْ غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلمُ على ما يراه من الشرّ والقبيح، ومنه قولُه تعالى: ﴿أضغاث أحلام﴾، ويستعمل كلّ واحدٍ منهما موضعَ الآخر[٤]. فالحلمُ هو ما يراه النائمُ من صور وأشخاص وتخيّلات، ويسمع أصواتٍ يتبيّن بعضها ولا يتبيّن بعضَها الآخر، ثمّ يستيقظ من نومه فينسى منها شيئًا ويذكر شيئًا، وقد لا يذكر منها إلّا القليل. أمّا أضغاثُ الأحلام فهي عبارة عن صور وأخيلة لا رابط لها ولا ضابط، ولا

(١) د/ سهيل زكار: مدخل إلي تاريخ الحروب الصليبية- نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر- دمشق- سوريا- لم تذكر سنة الطبع. جـ٤ ص١٧.

(٢) صبحي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي- دار المشرق- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٩٨م. ص٢٤٢.

(٣) الخوري الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم- المكتبة البولسية- بيروت- الطبعة الثانية ٢٠٠٩م. ص٥٩٨.

(٤) ابن منظور: لسان العرب. مادة حلم.

تقع تحت المعقول، يراها النائم فيقوم من نومه منزعجًا خائفًا، فهي أشبه بالوساوس الشيطانية والهواجس النفسية، التي تقع للإنسان في اليقظة[١].

إنّ جميع ما يرى في المنام على قسمين: فقسمٌ من الله تعالى، وقسمٌ من الشيطان؛ لقول الرسول ﷺ: الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان»، والمضاف إلى الله تعالى من ذلك هو الصالح، وإن كان جميعُه- أي الصادق، وغيرها- خلقًا لله تعالى، وأنّ الكافرين وفُسّاق المؤمنين قد يرون الرؤيا الصادقة[٢]. فقد وقعت الرؤيا الصادقة من بعض الكفار كما في رؤيا صاحبي السّجن مع يوسف عليه السلام، ورؤيا ملكهما، وغير ذلك[٣].

أمّا عن مفهوم الأحلام في الفكر المسيحي، فهي تعني أنّ الله يظهر إرادته أو يكشف المستقبل عن طريق الحلم. وفي الواقع قد يدلّ غالبًا تحليلُ روايات الرؤى في الحلم على أنّها توافق توجيهًا جديدًا للشخصية[٤].

إنّ الحركة الصليبية منذ بدايتها نتاجُ مجموعةٍ من عوامل متشابكة ومعقدة إلى أقصى الحدود، ومن ثمّ فإنّ أيّة محاولة لتفسيرها في ضوء عاملٍ واحد أو مجموعة عوامل محدّدة؛ فإنّ هذه المحاولة سيكون مآلُها الفشل[٥]. فقد كانت هناك أسبابٌ عديدة للحركة الصليبية منها الديني وغير الديني، منها الرغبة في التوسعات الاقتصادية عن طريق التجارة مع الشرق، كذلك الرغبة من باباوات الكنيسة في توحيد جناحي الكنيسة في الشرق والغرب، بالإضافة إلى الدوافع الشخصية كالحصول على الشهرة، وحبّ المغامرة[٦].

---

(١) د/ محمد بكر إسماعيل: تفسير الأحلام في ضوء الإسلام. ص٦- ٧.
(٢) ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير- دار ابن خلدون- الإسكندرية- لم تذكر سنة الطبع. ص٣.
(٣) ابن حجر: فتح الباري. جـ١٢ ص٣٦٢.
(٤) صبحي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص١٩٤.
(٥) د/ قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية- دار عين- القاهرة ٢٠٠١م. ص١٣.
(6) Robert Duncan: The power of a pilgrimage to the holy land. Derw university. Madison، New jersey. 2001. P.42

إنّ الناس يحتاجون إلى سندٍ عاطفي في مواجهة عدم الطمأنينة والمواساة عندما يواجهون الإخفاق، فالدينُ يكون بمثابة مساعدٍ عاطفي ضدّ الإخفاق والقلق والهزيمة التي تميّز الحالة الإنسانية، لكنْ بالنسبة للصراع الدموي الذي حدث بين الإسلام والمسيحية في الحركة الصليبية؛ فإنّ هذه الحروب تعدّ مثالاً لكيفية استخدام الدين كعاملٍ مدمّر(١). إنّ العلامات التي ظهرت في السماء، واكتشاف الآثار المقدّسة، والأطياف التي كانت تظهر لبعض الصليبيين، والتي صاحبت الانتصاراتِ التي حقّقها الصليبيون قد جعلتهم أكثرَ ميلًا إلى الاعتقاد في إمكان تحقيق المعجزات. وكان الصليبيون يروْن أنّ حملتهم الصليبية تتّسم بطابع الإعجاز مثل أيّ حدثٍ حربي ورد ذكرُه في العهد القديم- التوراة-، ومن ناحيةٍ أخرى نظر الصليبيون إلى الحوادث الطبيعية غير المتوقّعة على أنّها حدثٌ بفعل العناية الإلهية(٢). فقد أكثرَ الصليبيون من الرؤى والأحلام المقدّسة في عصر الحركة الصليبية، وقد وصِفَت هذه الرؤى والأحلام بأنّها «مقدسة»؛ لأنّ معظم الذين ظهروا في الرؤى كانوا من القدّيسين (٣) في غالب الأحوال. وفي هذه الرؤى كان الله- أو المسيح- يعنّفهم أو ينصحهم؛ إمّا شخصيًّا أو عن طريق الوسطاء من القديسين أو الموتى من الصليبيين الذين حسبما شاع الاعتقادُ كانوا يشاركون في القتال بجانب الأحياء من حينٍ لآخر(٤). لكنّ كلّ هذه المعجزات والرؤى المقدسة تضاءلت مع كلّ حملةٍ صليبية، أي بمرور الوقت، فقدت كلّ هذه الرؤى الإعجازية قيمتَها(٥).

---

(١) د/ محمد رجب بيومي: علم الاجتماع الديني. دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية ١٩٩٦م. ص٣٠٦، ٣٢٩.

(٢) جوناثان ريلي سميث: الحملة الصليبية الأولى، ترجمة د/ محمد فتحي الشاعر- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الثانية ١٩٩٩م. ص١٨١.

(٣) القديسون saints: مجموعة من المسيحيين المقدسين في الديانة المسيحية، وكانت عبادة القديسين بين المسيحيين في العصور الوسطي المسيحية أحد الجوانب الرئيسية في الدين، وأقيمت على شرفهم هياكل ومزارات كثيرة، كما شيدت الكثير من الكنائس على شرفهم أيضًا. د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم- مكتبة مدبولي- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع. جـ٣ ص ٢١٢.

(٤) جوناثان ريلي سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٨٣- ١٨٨.

(٥) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ترجمة د/ عبد الحافظ البنا.- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠١م. ص٢٢٢.

وعلى الجانب الإسلامي، فقد شاعت في عصر الحروب الصليبية أنباءُ الرؤى والأحلام التي يرى النائم فيها النبي، عليه الصلاة والسلام، أو الخضر، أو أحدَ أولياء الله الصالحين. وغالبًا ما كانت هذه الرؤى والأحلام مرتبطة بالحرب والجهاد ضدّ الصليبيين. كذلك كانت هذه الرؤى والأحلام تعبيرًا عن الآمال التي تجيش في نفوس الناس حيالَ واقعهم المرير. وطفِقَ المتعلّمون يتكلّمون عن القيامة وعلاماتها، ويتناقشون حول الجنة ونعيمها. وازداد تأثير طرق الدراويش في ثقافة المجتمع، فشاعت أخلاقياتُ الحزن والاستسلام، والاعتقاد في الخوارق والمعجزات، وهو ما تكشف عنه تلك الطائفة من أخبار الخوارق والكرامات[1] والخرافات التي تداولها مؤرّخو تلك الفترة باعتبارها حقائق تاريخية[2]. وعند تصفّح كتب تراجم عناصر صوفيّة بلاد الشام، فلا يوجد صوفيّ له ترجمةٌ ما، إلّا له كرامات ظاهرة، وكانت تلك الكرامات تتردّد على ألسنة العامّة على نحوٍ واسعِ النطاق، وقد لعبَ الخيال الشعبي والعاطفةُ الدينية دورَهما في المبالغة في جانبٍ من تلك الكرامات، والواقع أنّه مع مضيّ الزمن صارت تلك الجوانب تمثّل قسمًا راسخًا في الشخصية الشامية الدينية في خلال ذلك العصر، وتعليلُ ذلك يرجع إلى أنّ عصر الحروب الصليبية- بما شهده من أحداث صاخبة على المستوى الحربي والسياسي وضعف الجبهة الإسلامية وعدم ظهور رد فعل إسلامي- حاسمٌ ضدّ الصليبيين حتى قرب منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وما عاناه المجتمعُ من اضطراب سياسي، كلّ ذلك جعل عامّةَ الناس أكثر ارتباطًا بالجوانب الدينية في حياتهم، لذا فقد ارتبطوا بعناصر

(١) هناك تقارب في المعنى بين مصطلح الكرامة ومصطلح الكارزما Charisma الذي يدلل على قوة بعض الأشخاص أو موهبتهم. وهذه القوة هي التي تؤهل أصحابها لأن يكونوا أمثلة لغيرهم من الأفراد، كما أنّ هذه القوة غير العادية هي التي تجعل الأفراد ينظرون على أنهم مقدسون وممتازون على البشر، ومن ثمّ فهم أهل لقيادة الجماهير. أو حكامًا لمجتمعاتهم. د/ فاروق مصطفى: الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الثانية ١٩٨١م. ص ١٣٠- ١٣١.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية- المجلس الوطني للثقافة- الكويت ١٩٩٠م. ص٢٢٥.

الصوفية وبكراماتهم طالما أنّهم وجدوا في تلك الكرامات ملاذًا نفسيًّا وتعويضًا عمّا أصابهم في واقعهم من هزائم وانكسارات.[1]

غيرَ أنّ الرؤى والأحلام الإعجازية المقدّسة في الجانب الصليبي كانت أخطرَ من الجانب الإسلامي، ذلك أنّ هذه الرؤى والأحلام التي تمّت مشاهدتها في المنام وفي اليقظة، وسواء كانت صادقة أم كاذبة، قد تمّ توظيفها على نطاقٍ واسع في الدعوة للحروب الصليبية بوجْهٍ عام، وفي التحكّم في سير أحداث هذه الحروب بعد أنْ دارت رحاها، وهو ما سوف نتعرّف عليه في ثنايا هذا الكتاب.

(١) د/ محمد مؤنس عوض: العلاقات بين الشرق والغرب «العصور الوسطى»، دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م. ص٩٦- ٩٧.

جذورُ الرؤى والأحلام في المسيحية الغربية

لم تكنِ الرؤى والأحلامُ المقدسة وليدةَ عصر الحروب الصليبية، بل كانت متجذّرةً في المجتمع الأوروبي منذ العصور الوثنية الباكرة، فقد كان هناك الإلهُ مورفيوس Morpheus إلهُ الأحلام في الأساطير اليونانية، وهو أحدُ أبناء إله النوم «هبنوس» Hypnos»، أمّا شقيقه أبيكيلوس فهو يخلقُ الأحلام في الحيوانات في حين أنّ الشقيق الثالث يبعثُ الأحلامَ إلى الجماد، وينام هذا الإله داخل كهفٍ هادئ لا ينفُذ إليه ضوءُ النهار، وينام أطفاله «الأحلام «حول فراشه متفرّقين هنا وهناك[١].

هذا، ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل كانت هناك بوابة للأحلام الحقيقية تسمّى بوابة القرن Gate of Horn وهي عبارة عن مضيقٍ صغير تمرّ منه الأحلامُ الحقيقية لتصل إلى الناس من كهفِ الإله هبنوس. وهناك بوابةٌ للأحلام الزائفة تسمّى بوابة العاج Gate of Lvory وهي التي تمرّ منها الأحلام الزائفة الخدّاعة الآتية إلى الناس من كهف الإله هبنوس أيضًا[٢]. وإذا كان هذا هو موقفَ المجتمع الأوروبي من الأحلام في العصور الوثنية، فإنه يمكن القول بأنّ اعتناق أوروبا للمسيحية وجعلها الديانة الرسمية لدولها؛ كان بناءً على حلم.

ففي سنة ٣١٢م، غامر قسطنطين بكلّ شيء في زحفه عبرَ جبال الألب إلى مدينة روما لمقابلة خصمه مكسنتيوس، الذي كان يتفوّق عليه كثيرًا في عددِ جنوده، وفي معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge على مقربة من مدينة روما، دارت واحدةٌ من أهـمّ المعارك في التاريخ، وانتصر قسطنطين على منافسه، وقتلَه شرّ قتلة[٣].

---

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ٢ ص٤٢٩- ٤٣٠.

(٢) المرجع السابق: جـ٢ ص٢٠.

(٣) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار عين- القاهرة ٢٠٠٩م. جـ١ ص٦٢.

وقد أرجع هذا النصرَ إلى أنّ قسطنطين أثناءَ زحفه هو وجيشُه جنوبًا شهد هو وجيشُه بأكمله؛ رؤيا، فإنّ صليبًا براقًا ظهر أمام نواظرهم في السماء، وقد سطّرت عليه هذه العبارة «بهذا يكون النصر لكم: Hoe vinces ، وفي تلك الليلة أكّد المسيح الرؤيا، فيما رأى الإمبراطور في منامه من حلم، وتأثّر قسطنطين أعمق التأثير، واتّخذ «اللاباروم Lebarum» وهو الصليب ذو الرأس المعقوف؛ شعارًا له، وقاد جندَه إلى النصر تحت ذلك اللواء[١]. وفي سنة ٣١٣م أعلن الإمبراطـور قسطنطيـن «٣٠٦- ٣٣٧م» المسيحيـة دينًا من أديان الدولة[٢].

وكانت القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين توصف بأنّ لها روح إيمانية غير عادية، ونتيجةً لهذه الطبيعة التقية؛ تلقّت رؤى إلهية تأمرها بالتحرّك إلى القدس، وبالرغم من أنّهم وصفوها بالتقوى والحماس الديني الشديد إلّا أنها لم تستطع تحديدَ مكان الصليب الأصلي بدون مساعدة حكماء اليهود في القدس، ونتيجةً لهذه الرؤى قامت بالتحرّك لأماكن أخرى لاكتشاف بقية الآثار المقدسة. وأخذت هيلانة جزءًا من الصليب الحقيقي والمسامير، وقامت بوضعها على الدرع الذي يستخدمه ابنُها قسطنطين في الحرب، وعلى السّرج الخاصّ بجواده ليحرز النصر على جميع أعدائه لينشر السلام.[٣] لكنْ على الرغم ممّا سبق ذكره إلّا أنّ اعتناق قسطنطين قد صار مثارَ جدلٍ كبير بين المؤرخين[٤]. كذلك ممّا يثير الشكّ في حقيقة رؤيا الإمبراطور قسطنطين هو كيف عرف بأنّ الصليب الذي رآه هو وجنودُه؛ هو شعارُ المسيحية؟

---

(١) ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية. ترجمة/ عبد العزيز جاويد- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م. ص١٨- ٢٠.

(٢) د/ محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى- دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية ١٩٩٨م. ص٩١.

(3) (1) Gina Burke: The Justifications for relic thefts in the middle ages. Miami university ، oxford ، ohio. 2004. P. 51.

(٤) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط. جـ١ ص٦٣.

وذلك قبل أنْ تكتشف أمّة الصليب الحقيقي[1] ويعظمه النصارى بعد ذلك. بل هناك أمرٌ أخطرُ من ذلك، هو أنه لو قدّر لهذه الآثار المقدّسة أنْ يكشَف عنها بالفعل، أمَا وجد الربُّ يسوع غيرَ هيلانة هذه كي يبعث إليها بهذه الرؤى المقدسة؟ والتي كانت تعمل ساقية في إحدى حانات البلقان، وربما كانت تمتهنُ الدعارة[2].

على أي حال، فقد أسفر انتصار المسيحية على الوثنية عن مبدأ لاهوتي خالصٍ في التاريخ، فقد تحوّل إلى أيدي القساوسة والرهبان، وبقي فيهم زهاء ألف سنةٍ من الزمان، وكان مِن وراء ذلك أنْ غدا التاريخُ خاضعًا للاهوت مسخرًا له، وقد أصبح عملًا تعليميًّا، وفقد كلّ صفةٍ علمية كان يتّصف بها، وأصبح لا يكترث بحالٍ لمَا هو حقّ أو مُحتمل الوقوع، وغدا مشحونًا بأخبار الخوارق والكرامات غير معنيّ إلّا بما له صلةٌ بالدين، وجُملة القول أنّ تحوّل التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محوَ التاريخ الصحيح في الوجود محوًا تامًّا دام ألفَ سنة[3]. فقد أعان المسيحية في أثناء تقدّمها التدريجي، أساطيرُ قديسيها ومعجزاتها القوية الإسناد، ذلك أنّ أجيال ذلك الزمان كانت أجيالًا تؤمن بالخرافات[4]. وكان المؤرخون الأوروبيون- حتى عصر الحروب الصليبية- أسرى الأُطر القديمة التي ورثوها عن الرومان، والمفاهيم الغيبية التي ورثوها عن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة[5].

---

(١) تنكر العقيدة الإسلامية عملية صلب السيد المسيح عليه السلام من الأساس، وتقول بأن الصلب قد وقع على شبيهه، ولم يقع على السيد المسيح عليه السلام وذلك استنادًا على قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء: آية ١٥٧، ١٥٨.

(٢) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط. جـ١ ص٦٢.

(٣) محمود الشرقاوي: التفسير الديني للتاريخ، دار الشعب، القاهرة، لم تذكر سنة الطبع. ص٣١.

(٤) ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية. ص١٣.

(٥) د/ قاسم عبده قاسم: في تطور الفكر التاريخي- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ص١٤٧.

العقليةُ الأوروبية قبلَ اندلاع الحروب الصليبية

إذا كان الدينُ يقوم في جانبٍ منه على مجموعة من العقائد والتعاليم والطقس، فإنّه يقوم في جانبٍ آخر على البعد الأسطوري الذي يضفي صفةَ القداسة على بعض الأشياء والأحداث بطرائق متعدّدة، أهمّها المعجزات والوحي والرؤى الغيبية التي لا سبيل إلى البرهنة عليها عقليًّا[١]. كان أهلُ العصور الوسطى في أوروبا قومًا متدينين، وكثيرًا ما كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون في الخرافات، وكانت الرؤى المقدسة تشكّل جزءًا لا يتجزّأ من تربيتهم، بصرف النظر عن معرفتهم الخاصّة بعقائد الدين[٢].

كان الفلّاحون في الغرب الأوروبي- بصفة عامّة- أفظاظًا وبدائيين خشنين، كما كان الجهل هو السمةَ الغالبة عليهم، وكانت هذه «الكتلة الخرساء «في مجتمع أوروبا الغربية آنذاك محلّ احتقار الطبقات الأخرى في المجتمع، وهذا الجهل وهذه البدائية التي تميّز بها الريف الأوروبي في العصور الوسطى؛ كانت نتيجةً طبيعيّة لحياة العزلة التي عاشتها القرية الأوروبية في تلك الآونة. ولنا أنْ نتصـوّر مـدى ضيق أفق أولئك الفلاحين، وكيف كان يمكن أنْ تؤثر فيهم أيّـة دعاية باسم الدين[٣]. يقول المؤرخ البيزنطي يوحنا كيناموس على لسان أحدِ أباطرة بيزنطة[٤]: «ما من شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل».

---

(١) حسن طلب: تنقية الدين من الأساطير. مجلة إبداع. مجلة شهرية تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. العدد ١٢ سبتمبر ١٩٩٧م. ص٧٦.

(٢) د/ عبد الغني عبد المعطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. تحرير د/ قاسم عبده قاسم- دار المعارف ١٩٨٤م. مجلد ٢. ص١٥٥.

(٣) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية- دار عين- القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٩م. ص٨٠.

(٤) يوحنا كيناموس: أعمال يوحنا ومانويل كيناموس. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية- دار الفكر- دمشق- سوريا- لم تذكر سنة الطبع. جـ٢٨ ص٤٥.

فقد كان الفنّ الأوروبي وزوجته يكدحان من بزوغ الشمس حتى غروبها، ورغم هذا كلّه فقد كان هذا الفنّ لا يعتبر نفسه مظلومًا مغلوبًا على أمره، بل تصوّر نفسه بطلًا يفلح في الأرض، قويًّا صبورًا، وأنه يتحمّل كلّ هذا من أجل حياته وحياة أسرته وحياة السيد الإقطاعي، وكان أيضًا أميًّا غير مثقّف، وليس لديه معرفة عن شيء سوى الزراعة وأعمال القرية التي تكفُل له الحياة التي اقتنع بها، لذلك سيطرت عليه الخرافات[١].

فقد كانت الحياةُ الدينية في الريف تتغذّى على العديد من المعتقدات والممارسات التي كانت من تراث السحر القديم ومن نتاج الحياة الأوربية التي كانت ماتزال حافلةً بالأساطير، وكان لهذه وتلك تأثيرٌ كبير على العقيدة الرسمية، فقد كان الناس ما يزالون يرَوْن في السماء العاصفة جيوش الأشباح تمرّ بهم، جيوش الموتى كما كان يقول العامة، وجيوش الشياطين الشريرة كما كان يقول المتعلمون، الذين لم ينكروا أبدًا مثل هذه الرؤى، وإنما كانوا يبحثون عن تفسيرٍ لها، وكان تفسيرهم يحمل من الخزعبلات والخرافة ما يكشفُ عن تدني مستواهم المعرفي والديني في آنٍ معًا. لقد كان الدين آنذاك مزيجًا من الخرافة وطقوس الطبيعة، وكان القرويّون يجمعون ما بين التقوى والاعتقاد في الخرافات، فقد كان الريف يعجّ بالعيون الخفية والأشجار صانعة المعجزات حسب اعتقاد الفلاحين[٢]. فكان من المستحيل تقريبًا التّمييز بين الواقع والخيار، وكلّ القصص تمّ قبولها سذاجة كأنها حقيقة من قبل الجمهور الساذج[٣].

إنّ الناس في العصور الوسطى كانوا يميلون إلى تصديق كلّ ما يقال، بدلًا من البحث للتفرقة بين ما هو حقيقيّ وما هو غير حقيقي، واتّسع أفق الخيال في كلّ مكان، وصارت له اليدُ

(١) د/ محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى. ص٦٦- ٦٧.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص ٨١- ٨٢.

(3) Chronigue D' Albert D'Aix. Cours pratique de M. Le professeur M. Philippson. University of British Columbia 1887. P. 44.

العليا على العقل والمنطق، بحيث لم يصبح هناك فاصل أو تفرقة بين ما يجب أنْ يكون وما هو قائمٌ فعلًا، أو بين الخيال والواقع[1].

كان الجهلُ ما يزال يبسط رداءه في الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري؛ على المجتمع الريفي، ولا يمكن أنْ نتوقع في عصر تسوده الخرافات والرؤوس ملتهبةً بالحماسة الدينية العاطفية أنْ تردّ الظواهر الطبيعية إلى أسبابها الحقيقية، وليس إلى التدخل الإلهي، وإنّما ينبغي أنْ نتوقع أنْ يخترع رجالُ الكنيسة المعجزات التي يخدعون بها البسطاء. وكثر الحديثُ عن النجوم التي تتساقط من السماء مثلما يتساقط البرد، وعن الأضواء الشمالية الباهرة التي كانت تسطعُ بنورها فوق خط السماء بشكل خارق، وراجت حكايات عن الشهب المُلتهبة بمساراتها فوق رؤوس الناس، وشاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأطراف مضاعفة، والأطفال الذين تكلموا عقب ولادتهم، كما تناقل الناس الروايات عن الرعاة الذين رأوا مدينة تتألّق في كبد السماء وهُم يرعون قطعانهم ليلًا، ونسمع عن قسّيس يشاهد وهو في الطريق سيفًا ضخمًا معلقًا في السماء، تحمله الرياح، وقسٍّ آخر يرى في وضح النهار معركةً بين فارسين في السماء يضرب أحدُهما الآخر بصليبٍ كبير، بحيث ينتصر عليه، فكانت هذه الأخبار تلقى اهتمامًا كبيرًا من الناس، وتحظى بتصديقهم لها[2].

وقد تسرّب الهوسُ والجنون الديني إلى معظم الفئات، يذكر أحدُ المعاصرين من رجال القرن الثالث عشر الميلادي أنّ آلافًا من النساء جريْنَ عرايا عبر القرى والمدن لائذاتٍ بصمت عميق، وفي مدينة لوتيش Luttich- الفرنسية- كان يجتمع الكثيرُ من الناس، ويكثرون من الصياح في تشنجات هستيرية، الأمر الذي حدا بأحدِ المؤرخين المحدثين إلى القول «بأنه كانت هناك دائمًا

(١) هاري إلمر بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية. ترجمة د/ محمد عبد الرحمن برج- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م. جـ١ ص٨٤.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ، ص٢٠٨- ٢٠٩.

مسّة «مسحة «من الجنون تسير في الهواء[١]. فأسهمت حالة الغرب الذهنية والسيكولوجية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري؛ إسهامًا كبيرًا في نجاح الحملة الصليبية الأولى[٢]؛ حيث كانت الأوضاع الاجتماعية المحبطة، والجو الفكري المشبع بالخرافات والتدين العاطفي، والتعصّب من أهمّ الدوافع التي حركت المقهورين من أبناء الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي إلى المشاركة في الحملة الصليبية[٣].

فقد لجأت البابوية إلى كلّ الحيل الدعائية في صياغة الأيديولوجية[٤] الصليبية، فقد لجأت إلى الكذب وتزوير الوثائق والمبالغة، وترويج قصص الأحلام المقدسة والرؤى الإعجازية، وساهمت الظروف التاريخية في أوروبا آنذاك في نضج هذه الأيديولوجية[٥]. وعليه فإنّ تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي صنعته الجماهير والحشود البشرية لدى كلّ من الطرفين بلا استثناء، لكنّ الجماهير الحاشدة في الغرب الأوروبي كانت بمثابة الوقود لحركة الحروب الصليبية، وقد حركتها البابوية بدهاءٍ شديد من خلال التدين العاطفي الانفعالي لضمان نجاح ذلك المشروع الصليبي الجديد[٦].

(١) د/ عبد الغني عبد المعطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٥٧- ١٥٨.

(٢) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ترجمة/ بشير السباعي- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م. ص٣٣.

(٣) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص٦٧.

(٤) كلمة أيديولوجية كلمة معربة، وأصلها فرنسي مركب من جزأين idée بمعنى فكرة، logie بمعنى علم، فهي اشتقاقًا علم الأفكار. د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية. ص٧.

(٥) د/ قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص٢٢٥.

(٦) د/ محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية- السياسة- المياه- العقيدة. دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠١م. ص١٣.

الرّؤى والأحلامُ الممهّدة للحركة الصليبية

ساد في أوروبا مناخُ ترقّبٍ أُخرويّ، عبّر عن نفسه من خلال نصوص مختلفة ذات نبرة رؤيوية أو نبوئية راجت في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، مثل المجيء القريب لإمبراطور سوف يحرّر القدس، ويعلن ثأر المسيحيين من الإسلام، وتمجيد الأمة الفرنجية وفرسانها[١].

غيرَ أنّ الفكرة الكبرى التي سيطرت على أوروبا قبل اندلاع الحركة الصليبية هي فكرةُ نهاية العالم في سنة ١٠٠٠ ميلاديـة، ففي حوالي سنة ألف ميلادية كان الناس في أوروبا مقتنعين بأنّ العالم يقترب من نهايته، وأنّ يوم الدينونة الأخير وشيكًا، والواضح أنّ هذا الاعتقاد قد نشأ لدى الناس بسبب الفقرة الشهيرة في سفر الرؤيا «رؤيا يوحنا اللاهوتي «التي تنبّأ بأنّ نهاية العالم سوف تأتي بعد ألف سنة من موت المسيح[٢]. لكن أيّ إنسان يريد أنْ يعرف الهلع الذي حدث في سنة ١٠٠٠م فلا بدّ له أنْ يرجع إلى ما كتبه رالف جلابير[٣] Radulf Glaber فهو يعدّ مصدرَ الجميع فيمَن قالوا بنهاية العالم في هذه السنة[٤]. ففي الألفية الأولى حسب التقويم الميلادي زعموا بأنّها ستكون نهاية العالم، وسيطر هذا الاعتقادُ على أوروبا بأسرها،

---

(١) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ص٣٤.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى. ص٤٣.

(٣) كان رالف جلابير Radulf Glaber راهبًا مسنًّا كثير الكلام ويؤمن بالخرافات وكان منزله الفرنسي على حافة ثلاث مناطق مهمة يعبر من خلالها وفود الحجاج الذاهبين إلى ديركلوني وروما، وقضى حياته بين ديركلوني وروما وأديرة أخرى، وأصغى أذنيه لأي قصة تقال عن الخرافات خاصة الهام منها.

George Lincoln Burr: The year 1000 and the antecedents of the crusades.The American historical review، vol. 6، No3 «apr. 1901 «P. 433.

(4) George Lincoln Burr: The year 1000 P. 433.

وأيقن الناسُ تمامًا بأنها نهاية العالم، فقام البعض بإنفاق ثرواته في حياة الصخب، والبعض منهم خصّص ثروته وكرّس نفسه للخلاص[١] الروحي داخل الكنائس والأديرة، وأخذوا يبكون وينتحبون ليلًا ونهارًا من أجل التوبة، وظهرت علاماتُ الرعب والفزع على الكثيرين منهم[٢]. كما أنّ الكوارث الطبيعية التي حلّت بأوروبا آنذاك كانت كثيرةً ومتعدّدة، وازداد شعور الناس بالضيق والضجر والحزن من جرّاء انتشار المجاعات والفيضانات والأوبئة، وقد فسر الناس هذه الكوارث الطبيعية على أنها نذيرٌ بقرب يوم الدينونة وجمع الناس للحساب[٣].

فقد تمّ خداع الناس عن طريق حسابات خاطئة بأنّ العالم سينتهي في عام ١٠٠٠ ميلادية[٤]، وذلك من خلال الكتاب الذي ألّفه رالف جلابير، وأرّخ فيه للفترة ما بين عامي ٩٠٠م، ١٠٥٦م/ ٢٨٨هـ، ٤٤٨هـ. على أنّ هذا الكتاب يتّصف بعدم الدقة، فضلًا عن إكثاره من ذكر الخرافات والأساطير، ومنه استقينا الخرافة التي شاعت في ذلك الحين، والتي ردّدت بأنّ موجةً من الرعب ستجتاح العالم المسيحي عند حلول السنة الألف بعد مولد المسيح، ولم تلبثْ هذه الخرافة أنْ تردّدت في كتب التاريخ[٥].

فقد انقضّ الألف عام الأولى من تاريخ المسيحية، ومرّت السنوات والأعوام دون تغيّرٍ منظور، ولكنّ هذه الفكرة العاطفية ظلّت مترسّبة في الوجدان المسيحي في أوروبا، وشعر الناس في أوروبا شعورًا عميقًا بوطأة الذنوب والخطايا التي اقترفوها في حياتهم الدنيوية[٦].

---

(١) عملية الخلاص أو المُخلّص Savior شخصية هامة في مختلف ديانات العالم، فهو بوذا في الديانة البوذية، ثمّ هو «المنتظر» في نفس الديانة، وهو زرادشت في الديانة الفارسية القديمة، وهو يسوع المسيح في المسيحية. د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ٣ ص٢٢٨.

(2) George Burr: The year 1000. P. 429.

(٣) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص١٧.

(4) George Burr: the year 1000. P. 430.

(٥) هاري بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية. حـ١ ص١٠٩.

(٦) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص١٧.

فكان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك مشاعر الألفية والأخروية توّاقين لضمان الخلاص. وقد تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى بيت المقدس «Iter Hyerosolimitanum» وقد انعكس ذلك في زيادة عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب أوروبا صوب القدس[١].

كتب تيرتوليان Tertullian- أشهر علماء اللاهوت في الغرب في ذلك الوقت- في أوائل القرن الثالث الميلادي عن معجزةٍ عجيبة في فلسطين، شوهدت مدينة مسوّرة في السماء في الصباح الباكر من كلّ يوم لمدّة أربعين يومًا، وكانت تبهتُ مختفية مع تقدّم النهار، وكانت هذه علامةً أكيدة على أنّ القدس السماوية على وشك النزول، وكانت هذه هي الرؤيا نفسها التي تلهبُ وتمتّن مقاومة حشود الشعوب الصليبية وهي تكدحُ نحو القدس بعد ذلك بنحو تسعة قرون[٢]. لقد سيطرت أورشليم على الأفق الأخروي، وكانت الصورةُ الذهنية للمدينة المقدسة ذات أهمية خاصّة في تقوّي ذلك العصر، وبالنسبة لناس ذلك الزمن، فإنّ صوت الاسم نفسه لا بدّ أنه كانت له «روعة باهرة سحرية»، وكان الناس البسطاء غير المتعلمين مفعمين بأحلامٍ أخروية مبهمة وغامضة وغير متماسكة على الأرجح، كما أنّ الحج كان رحلةً عبر الخيال، وكانت خطواتُ الحجاج تقتفي أثر المخيلة، فالخيال هو الذي رسم حدودَ العالم، وقد جرى طمسُ الحدّ بين الخيال والواقع، كما أنّ أورشليم السماوية وأورشليم الأرضية قد امتزجتا أيضًا في مخيّلة أنصار الحركة الصليبية[٣].

كانت الصورةُ الغيبية عن القدس السماوية التي تختلط بواقع القدس الأرضية تؤثر تأثيرًا عميقًا في وجدانهم، إذْ كانوا يظنون أنهم ماضون إلى الأرض التي لا يوجد بها فقراء Pauperes،

(١) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٧.

(٢) د/ سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية- دار الفكر- دمشق١٩٩٥م. جـ٤ ص٢٤.

(٣) توماش ماستناك: السلام الصليبي. ترجمة/ بشير السباعي- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م. ص٦٠- ٦١.

وشاع بينهم أنّ نهاية العالم القريبة سوف تنقلهم إلى أورشليم السماء؛ حيث يستمتعون بالنعيم الخالد. هذا التراث هو الذي جعل القدس السماوية تختلط بالقدس الأرضية في أحلام المقهورين من أبناء الغرب الأوروبي، وهو تراثٌ كان يمثل ركيزةَ الفكر الغربي الشعبي في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري. أي عشية الحروب الصليبية[١]. ذلك أنّ رغبة الفلاحين بتلك البلاد في الفرار من مواطنهم القاسية الفقيرة، وفي الهجرة إلى بلاد تعجّ بالثروة الأسطورية، فخلطوا بين بيت المقدس على وجه الأرض، وبين تلك التي في السماء، وتوقّعوا أنْ يصادفوا مدينةً يكسوها الذهب وتفيض باللبن والعسل، غير أنّ آمالهم خدعتهم، ولكنهم لم يتخلّصوا من الخداع إلّا في بطء[٢]. وبما أنّ الغرب الأوروبي ظلّ حتى ذلك الحين ريفي الطابع، فقد كان الدين بالنسبة لسكانه- وهم أغلب سكان أوروبا آنذاك- مزيجًا من الخرافة وطقوس عبادة الطبيعة، وبعض تعاليم المسيحية[٣].

وعلى الرغم من أنّ هذه الأفكار والتوقّعات التي دارت حول اكتمال الألف الأولى في التقويم المسيحي، وما أفرزته من أخبار المعجزات والخوارق، والأحلام المقدّسة؛ كانت من روافد الأيديولوجية التي صاغت الحملة الصليبية، إلّا أنها في التحليل الأخير لم تكن عاملَ الحسم في الوصول إلى صيغة الحملة الصليبية الأولى[٤]. فقد كانت الحروبُ الصليبية بمثابة مؤامرة بابوية شريرة، وقناعٍ يستتر وراءه مظاهر الجشع الدنيوي المادي[٥].

(١) د/ قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص٢٣١- ٢٣٢.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة د/ السيد الباز العريني- دار الثقافة- بيروت- لبنان١٩٩٧م. مجلد ٣ قسم ٢ ص٦٠٠.

(٣) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٧.

(٤) المرجع السابق: ص١٩.

(٥) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص١٣.

دورُ الرّؤى والأحلامِ المقدسة في الدعوة للحركة الصليبية

يعدّ البابا أوربان الثاني[١] Urban II هو المسئول عن الحركة الصليبية، ففي ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ في مؤتمر كليرمونت[٢] Clermont قام بإلقاء خطاب، قاد العديدَ من الآلاف للرغبة في أخذ الصليب، وهناك العديدُ من النسخ للخطاب الذي قاله، ولكنّ هذه النسخ تختلف في تعبيراتها، لذلك لا نستطيع أنْ نقرّر ما هو الكلام الذي قاله بالضبط[٣]، وقد بدأت الحركة الصليبية في أسلوب ميلودرامي قُدّر له أنْ يكون أسلوبَها النمطي فيما بعد، ولأنّ البابا نفسه كان من أبناء الطبقة التي رغب في أنْ يستنفرها، فلا شكّ أنّه كان يعرف كيف يلعب على عواطف حاملي السلاح[٤].

بدأ المبشّرون الجوالون الكنسيون وغير الكنسيين يطوفون القرى والمدن الأوروبية والقلاع الإقطاعية يستحثّون الأهالي من أجل المشاركة في تحرير الأرض المقدّسة في فلسطين، ولم تقتصر دعوة الوعاظ الجوالين على تحرير الضريح المقدس الذي دنّسه الحكام المسلمون- في

---

(١) في ١٢ مارس سنة ١٠٨٨م/ ٤٨١هـ اعتلى العرش البابوي البابا أوربان الثاني، وهو: رجل فرنسي كان اسمه العلماني أودو دي لاجيري odo de lagery. د/ قاسم عبده قاسم الخلفية الأيديولوجية. ص٩٥.

(٢) كليرمونت Clermont: معناها بالفرنسية الجبل المضيء، وعندما اندلعت شرارة الاضطهاد الصليبي ضدّ اليهود. أطلقوا عليها اسمًا عبريًّا معاكسًا هو «هارهاوفل» أي الجبل المظلم، تعبيرًا عن كراهيتهم لهذا المكان الذي شهد الدعوة إلى الحروب الصليبية. د/ قاسم:اضطهاد الصليبيين ليهود أوروبا. مجلة إبداع عدد ١٢ سنة ١٩٩٧م. ص٥٣.

(3) Dana munro: the speech of pope urban II. The American historical Review، vol. 11 ، No 2 ، Jan، 1906 P. 231.

(٤) جوناثان سميث: تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٧م. ص٧.

اعتقادهم- فحسب، بل تضمنت دعوتهم أيضًا تحريرَ وفكّ أسْر المسيح نفسه، وإنقاذه من يد المسلمين، وإعادته إلى المجد[١]، وقد غصّت المصادر اللاتينية التي عالجت تاريخ وأحداث الحملات الصليبية عامّة، وأحداث الحملة الأولى منها خاصّة؛ غصّت بكثيرٍ من الروايات التي تثبت سذاجةَ الفرنج الدينية، وإيمانهم بالظواهر الخارقة للطبيعة، وكان المؤرخون اللاتين أحيانًا يميلون إلى تأكيد صحّة وحقيقة ما يحدث لإثارة الحماسة الصليبية في غرب أوروبا[٢].

أمّا صدى الدعوة إلى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبي، فكان مثيرًا حقًّا، ففي مجتمعٍ له ظروف الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر، حيث تسود مظاهرُ الجهل، وتتفشّى الأميّة، وحيث تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات والخزعبلات. كان لا بدّ أنْ تكون الاستجابة لمثل هذه الحرب قويّة، بل وهستيرية وهو ما حدث بالفعل[٣]. ففي غضون بضعةِ شهور وصل محتوى الرسالة إلى جميع قرى وقصور الجماعة المسيحية في فرنسا، واشتدّت الحماسة من جرّاء حوادث طبيعية تشير إليها مدوّنات الأخبار، مثل خسوف القمر وسقوط النيازك، والنشاط الشمسي المتزايد، بينما تنتشر نبوءة أخروية تعلن تتويجَ آخر إمبراطور في القدس قبل انتهاء الزمان[٤]. وجاء موسم سنة ١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ ، جيدًا، فتفاءل الناس خيرًا، واعتبروه رضًا ربانيًّا، وتساقطت النيازك بكثرة، فاعتبرها أسقف ليزيو Lisieux- بفرنسا- إشارةً سماوية تنبئ بزحف الجماهير على الأراضي المقدسة[٥].

---

(١) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص٢١.

(٢) بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ترجمة د/ حسين عطية- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية ١٩٩٨م. ص٢٤٨ حاشية رقم «٣٨».

(٣) يوشع براور: عالم الصليبيين. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار المعارف- الطبعة الأولى ١٩٨١م. ص٢١.

(٤) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ص٨٣.

(٥) د/ أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى- المكتبة البولسية- بيروت- لبنان ١٩٨٨م. جـ٢ ص٢٦٦.

كان الفلاحون هُم الذين تحركوا أولًا، ويمكن أنْ نعزو ذلك إلى الظروف الاجتماعية المُحبطة السيئة التي كان يعيشها أفراد هذه الطبقة الشعبية، وأيضًا بسبب حالة التعصب الديني المستعر، التي كانت تحكم طبقات العامة في المجتمع الإقطاعي الأوروبي آنئذ[١]. حيث كان الفقراء يتصوّرون أنهم المقصودون بهذه الدعوة، فقد تبلورت فيهم الأفكار الألفية والأخروية، فساروا صوب القدس دون انتظار الأمراء، وفرسانهم الذين كانت تعوزهم فسحةٌ من الوقت لتمويل الحملة[٢]، فقد كان الفقراء والمعدمون يعدّون أنفسهم المختارين من الله، ربما ظنّوا أنّ المسيح قد عاش فقيرًا، ولذلك فإنه يفضلهم معشرَ الفقراء عن غيرهم، ويخصّهم ببركاته المتمثلة في الرؤى والأحلام المقدسة، وكانت هذه الرؤى والأحلام تلوح لهم عندما يتعرّضون لأزمةٍ من الأزمات أو يواجهون موقفًا ميئوسًا منه[٣]. ومن المثير حقًّا أنّ الأحلام المقدسة كانت دائمًا من نصيب الفقراء الذين رافقوا الحملة الأولى[٤]. ومن بين الشعوب أو الأفراد الذين لم يصلْ إليهم المرسوم البابوي، اعترف البعضُ منهم بأنهم ذهبوا إلى أرض الميعاد بناءً على دعوة المتنبئين الذين ظهروا من بينهم، أو بناءً على علامات وإشارات في السماء[٥]، كما أنّ القائمين على الدعوة للمشاركة في الحرب الصليبية أقرّوا بأنّ الجيوش الصليبية اشتملت على مغامرين ودجالين[٦].

قام عددٌ من الأفراد برسْم صلبان على أجسادهم عن طريق الوشم باللون الأزرق أو الوشم بالنار، وربما كانوا تحت تأثير حالة من الهستيريا أو ضحية للخداع، وكان بولدوين Baldwin

(١) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص٢٣.
(٢) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٨.
(٣) د/ عبد الغني عبد المعطي: صليبية الأطفال. مجلد ٢. ص١٥١.
(٤) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص١٤٨.
(٥) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص٧٧.
(٦) المرجع السابق: ص٧٨.

القسّ التابع لجودفري البويوني- أحد قادة الحملة الصليبية الأولى- أكثر أولئك تأثيرًا، ووشَمَ جبهته بالنار بعلامة الصليب، وموّل رحلته إلى الشرق بما قدّمه المؤمنون من إعانات، فقد كان أولئك المؤمنون يعتقدون بأنّ أحدَ الملائكة[١] يقودهم إلى الشرق[٢].

وقد اختار البعضُ لأنفسهم قادةً من بين نظرائهم، على حين انضوى البعضُ الآخر تحت لواء أحدِ الفرسان أو أحد أبناء العائلات النبيلة، وتحرك البعض دونَما قيادة[٣]، ومن بين هؤلاء القادة أميكو Emicho ، كونت ليزينجن Leisingen، والذي كان بارونًا إقطاعيًّا سيئ السمعة؛ لضراوته، لكنه ادّعى بأنه قد دعي لحمل الصليب في الرؤى والإلهام الإلهي، ففي أحدِ الأيام جاءه رسولٌ من المسيح ووضع على لحمِه علامة- لا شكّ أنها العلامة التقليدية للاختيار الإلهي؛ أي الصليب، ووضعها على- أو بين- لوحي الكتف؛ وادّعى أميكو أنّ هذه العلامة كانت رمزًا مؤشرًا على أنّ المسيح نفسه سيقوده إلى النصر، وفي الوقت المناسب سيضع تاجًا على رأسه[٤].

وبفضل هذه القصّة، وبفضل شهرته كمحاربٍ اجتمع حوله مجموعةٌ من الحمقى، صرّحوا بأن هناك أوزة[٥] مُلهمة بروح القدس، وكانت هناك عنزة أيضًا قد ملئت بالروح القدس،

---

(١) الملائكة The angels: في الفكر المسيحي هي الأرواح السماوية التي تخدم الله- عز وجل- بسعة مختلفة، فهي كائنات سماوية فوق طاقة البشر، وهم مخفيون عادة، والوظيفة الأساسية للملائكة هي تنفيذ إرادة الله وتمجيده.

new catholic Encyclopedia: washington ، D.C secand Edition U.S.A، vol 1. p. 415. The angels .

(٢) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى ص ١٥٢- ١٥٣.

(٣) يوشع براور: عالم الصليبيين. ص٤٦.

(٤) د/ سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. الموسوعة الشاملة جـ٤ ص٩١.

(٥) الأوزة Goose: كانت مقدسة في الأساطير الرومانية عند الإلهة جونو Juno زوجة كبير الآلهة جوبيتر، وكانت الأوزة توضع في معبد الإلهة لكي «تكاكي» للتيمن بها قبل ملاقاة الأعداء. د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ٢ ص٥٠، وربما تكون هذه القداسة للأوزة قد بقيت في الوجدان الأوروبي حتى عصر الحركة الصليبية.

وقد جعلوهما دليلهما في الرحلة المقدسة إلى القدس، غير أنّ السيد المسيح ما تمنّى أنْ يزار قبرُه المقدس بهذه الحيوانات الشرسة العديمة الحسّ، كما أنه لم يتمنّ أنْ تصبح هذه الحيوانات أدلاءَ للأرواح المسيحية[١]، على حدّ تعبير المؤلف. كانت حملات أميكو مخزيةً بدرجة كافية، وجماعته من الدهماء الألمان والفرنسيين لم تصل أبدًا إلى آسيا الصغرى، وإنما هزمت وشتت من قبل الهنغار، وعاد هو نفسه إلى وطنِه بمفرده، ومع ذلك فإنّ هالة القوة الخارقة كانت تلصق بأميكو، وبعد مقتله في عام ١١١٧م/ ٥١١هـ بسنوات افترض أنّه يتابع نوعًا من الوجود في جبل قرب «ورمز «رؤى منه يظهر من وقت لآخر وسط فرقة مسلّحة، وهذه أسطورة توحي بقوة بأنّ الخيال الشعبي قد أصرّ على تحويله إلى بطل نائم لا بدّ أنْ يعود يومًا ما[٢].

على الرغم من أنّ الحملة الصليبية الأولى كان ينظر إليها على أنها مشروعٌ فرنسي وعمل قومي، إلّا أنّ سكان فرنسا ذاتها لم يعتبروا أنفسهم ينتمون إلى أمةٍ واحدة، فعلى الرغم من أنّ مصطلح «فرنجة» اشتمل على أناس من غرب ألمانيا، فقد كان أهالي بروفنسال Provencals يعاملون وكأنهم ينتمون إلى جنسٍ آخر غير الفرنجة، وتوتّرت العلاقات بينهم وبين الفرنسيين، كما أنهم تخلّوا عن صيحة المعركة «هذه إرادة الله Deus hoc vult » التي استخدمها الفرنسيون الشماليون، والنورمان في جنوب فرنسا، واستخدموا صيحةً أخرى هي «الله في عوننا» ويقال إنّ صيحة المعركة جاءتهم عن طريق شخصٍ كثير الرؤى ونصحهم باستخدامها.[٣]. ولم يكفّ الصليبيون عن هذه الرؤى حتى في طريقهم إلى الشرق، من ذلك قول المؤرخ الصليبي فوشيه

(1) August. C. Krey: The first crusade: The Accounts of Eyewithnesses and participants. princeton. 1921. p. 54 - 56.

(٢) د/ سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. الموسوعة الشامية. جـ٤ ص٩١.

(٣) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٦٠.

الشارتري[1]: «عندما وصلنا إلى مدينة هرقلية[2]، رأينا علامةً معينة في السماء، ظهرت بشكل بياض ناصع على هيئة سيف يشير إلى الشرق، لم نعرف ما كانت تنبئ عن المستقبل، وتركنا الحاضر والمستقبل بيد الله «وقد ساعدت هذه الرؤى والظواهر الطبيعية على تدعيم الإيمان الراسخ بأنّ الحرب الصليبية كانت حربًا في سبيل الله، وليس هناك ريب في أنّ الصليبيين اعتقدوا بأنّهم خاضوا تلك الحرب تحقيقًا لمبدأ العدل[3]. غير أنّ فكرة الحرب المقدسة التي دعت إليها الكنيسة وباركتها، وغرستها في عقول الأوروبيين الغربيين، قد سجل التاريخ بأنّ «الصليبيين كانـوا بعيدين تمامًا عن الإيمان المثالي الذي اعترفوا به»[4].

(١) فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس. ترجمة د/ زياد العسلي- دار الشروق.عمان- الأردن- الطبعة الأولى١٩٩٠م. ص٥١.

(٢) هرقلية: مدينة ببلاد الروم- في تركيا حاليا- الحموي: معجم البلدان- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان ١٩٧٩م. جـ ٥ ص ٣٩٨

(٣) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٩٤.

(4) Robert Duncan: The power of a pilgrimage to the holy land. P.45.

حلمُ بطرس الناسك[1]

ودورُه في الدعوة للحروب الصليبية

كان بطرسُ الناسك محورَ أسطورة اعتبرها المؤرخون حقيقةً تاريخية، وقد نسبت الأسطورةُ إلى بطرس فضل إثارة الغرب الأوروبي لشنّ حربه الصليبية ضدّ الشرق العربي الإسلامي، تقول المؤرخة البيزنطية أنّا كومنينا عن بطرس الناسك[2]: «دبر حيلة ماهرة إذ مضى يبشّر في جميع الأقطار اللاتينية، وقال إنه سمع صوتًا إلهيًّا أمرَه أنْ يعلن إلى جميع الكونتات في فرنسا بوجوبِ مغادرتهم بلدانَهم والنهوض إلى أداء الصلاة في الهيكل الطاهر، وأنْ يجاهدوا بأرواحهم وقواهم لتخليص بيت المقدس». وقد زاد على هذه الرواية ألبرت أيكس فزادَها توضيحًا فقال[3]: «إنّ بطرس الناسك قدِمَ للحج إلى القدس، ونام ذاتَ ليلة في القبر المقدس، فظهر له يسوع المسيح في المنام، وأمره بالعودة إلى الغرب والتبشير بالحروب الصليبية لإنقاذ المدينة المقدسة».

غير أنّ المصادر الأوروبية المتأخّرة عن عهد الحملة الصيلبية الأولى ذكرت هذا الحلمَ وأثره في الدعوة للحروب الصليبية بشيء من التفصيل، من ذلك قول المؤرخ روجر أوف ويندوفر[4]: «كان هناك راهبٌ اسمه بطرس، يمارس أعمال النّسك، وكان قبل قليلٍ من وقوع

---

(١) بطرس الناسك: هو واعظ الحملة الصليبية الأولى، ولد عند أبرشية أميان Amiens بفرنسا سنة ١٠٥٠م/ ٤٤٢هـ، وتوفي ودفن في دير نافموتر Neufmouter في شهر يوليو سنة ١١١٥م/ ٥٠٩هـ، ومهنته المبكرة غامضة، أمّا لقب الناسك فقد اشتق من عباءة النساك التي يرتديها عادة، وكان يمشي حافي القدمين ولا يستحم، وامتنع عن أكل الخبز واللحم، وكان يقتات بشكل رئيس على السمك والنبيذ.
New catholic Encyclopedia. Vol. 11 P. 207 Peter the hermit.

(٢) أنا كومنينا: الاكسياد. ترجمة د/ حسن حبشي- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٤م. ص٣٨٨.

(3) Chronique D' Albert D'Aix: P.50.

(٤) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر- دمشق- سوريا- لم تذكر سنة الطبع. جـ٣٩ قسم ١ ص١٥- ١٧.

هذه الأحداث- مؤتمر كليرمونت- قد ارتحل إلى خارج فرنسا، ذلك أنه كان مرتبطًا بعهد الحج إلى الأراضي المقدسة، وعند وصوله إلى مقصده ودخل المدينة تسلّم مقرّ إقامة في بيت أسرة مسيحية. وحدث في أحد الأيام أنه كان قلقًا أكثرَ من المعتاد، وراغبًا بالعودة إلى بلده. فدخل إلى كنيسة القيامة حيث أمضى الليلَ في صلاة وصوم، وأخيرًا وقد وجد نفسه منهكًا تمدّد فوق البلاط يتمتّع بقليل من النوم، وما أنْ كاد يغمض عينيه حتى رأى يسوع المسيح واقفًا أمامه، وهو يحثّه على تنفيذ المهمّة المذكورة ويقول له: «انهض يا بطرس، وأسرع، ونفّذ دون خوف الذي عهد به إليك، ذلك أنّني سوف أكون معك، لقد آنَ الوقت لتطهير الأماكن المقدسة، ولنجدة عبيدي والتفريج عنهم في تعاستهم»، واستيقظ بطرس وهو مطمئنّ بالرؤيا الربانية، ورحّب بالنصيحة الربانية ثمّ بادر مسرعًا نحو شاطئ البحر، وصعد هنا إلى ظهر سفينة، ووصل إلى روما، ووجد البابا أوربان وقدّم له روايةً متوازنة وصادقة حول التعاسات التي يعاني منها الذين في الأرض المقدسة، ووعده البابا بأنّه سوف يتعاون معه في الوقت المناسب بإخلاص عظيم». ويبدو أنّ بطرس قد أسهم في الأسطورة بحمل الرسالة السماوية معه أينما وعظ، وكان نجاحُه كداعية ضخما[1]. إنّ البحث العلمي الحديث كشف عن زيفِ هذه الأسطورة، وعن أنّ هذا الرجل كان أبعدَ ما يكون عن استحقاقه هذا الدور، إذ كان مجرّد واحدٍ من أفرادٍ كثيرين استجابوا لدعوة أوربان الثاني، فضلًا عن أنّ شهرته قد اقتصرت على شمال فرنسا وألمانيا؛ لأنّ الإنجليز والإيطاليين لم يعرفوا عنه شيئًا[2]. ومن المرجّح أنه حاول منذ سنوات أنْ يؤدّي الحج إلى بيت المقدس، غير أنّه تعرّض للأذى من قبل الأتراك، فأرغموه على العودة دون أنْ يؤدّي الحج[3].

ولم يكن حلم بطرس الناسك هذا هو الذي حرك الشعوب الغربية نحو الشرق، بل يقال إنّ الأسقف جيلبرت الليزيوى Gilbert of liseux في غرب أوروبا كان قد تنبّأ بهجرة شعوب

(١) د/ سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. الموسوعة الشامية. جـ٤ ص٧٦.
(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص١٢٢.
(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ١ ص١٦٩.

غرب أوروبا قبل دعوة البابا أوربان لذلك في مجمع كليرمونت[1]، وهناك وثيقةٌ تحمل عنوان «مَن تكون أورشليم Who is Jerusalem» ترجع إلى عهد البابا سلفستر الثاني SilvesterII ٩٩٩- ١٠٠٣م/ ٣٩٠- ٣٩٤هـ «يرى فيها العلماء أنّ بها نظرةً بعيدة لأقْدَم اقتراح للحركة الصليبية، وهذه الوثيقة تنتسب إلى البابا سلفستر الثاني لأنه تمّ العثور عليها وسط أوراقه[2].

والحقيقةُ أنّ المصادر التاريخية التي عاصرت الأحداث التي جرت منذ كليرمونت ١٠٩٥/ ٤٨٨هـ، وحتى سقوط القدس سنة ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ؛ لم تذكرْ شيئًا عن حجّ بطرس إلى أورشليم، باستثناء أنا كومنينا، وبما أنّ أنا كومنينا كانت طفلةً زمنَ وقوع هذه الأحداث، كما أنه كتبت بعد نحو نصف قرنٍ من الأحداث، فلا يعتمد عليها كثيرًا[3].

أضفْ إلى ذلك أنّ دافع بطرس الناسك لاعتناق الرهبنة من الأساس، ثمّ انخراطه في الدعوة للحروب الصليبية؛ لم يكنْ بدافع الدين، بل لأنّه كان معقدًا نفسيًّا، وهذه العقدة أتتْ إليه من جرّاء تعرّضه للطعن في كرامته بسبب سوء سلوك زوجته، فلم يجدْ بديلًا لسلوى نفسه سوى تطليق الدنيا، ووهب نفسه للقضية الصليبية.

فقد كان بطرس الناسك من مواليد مدينة أميان بفرنسا- كما ذكر آنفًا- واسمه الحقيقي «كوكو بيتر»، وكان قميئًا قصيرَ القامة، قبيحَ الوجه، بينه وبين النظافة عداوةٌ مقيمة، ولعلّ صفاته هذه هي التي دفعت زوجته للتمرّد عليه والارتماء في أحضان الآخرين، الأمرُ الذي أحدث شرخًا عميقًا في نفسه، فترك زوجته وأولاده، وهامَ على وجهه في فيافي فرنسا، وانقطع للزهد والتعبّد، فبلغته دعوة البابا أوربان الثاني لحرب المسلمين؛ فتطـوّع تلقائيًّـا للدعوة لهذه الحملة[4].

---

(١) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٧٠.

(2) George Burr: The year 1000. P. 437.

(٣) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص١٢٢.

(٤) د/ تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج- الدار العربية للكتاب- بيروت- لم تذكر سنة الطبع. ص٥٤.

على الرّغم من أنّ حلم بطرس الناسك كان زائفًا، إلّا أنه لا يزال يحظى باهتمام المؤرخين باعتباره تجسيدًا للحماسة الدينية الشعبية من ناحية، وبسبب تناقض تصرفاته مع المثال الذي بشّر به ودعا إليه من ناحيةٍ ثانية، إذ أنّ بطرس الذي يعتبره بعضُ المؤرخين الفرنسيين نبيّ الحركة الصليبية، قد هرب أثناء معاناة الصليبيين في حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ وقبض عليه، وأعيد إلى المعسكر الصليبي بصورة مهينة(١).

لقد استطاع بطرس الناسك بفضل ما أوتيَ من قوة في الخطابة وقدرة على الإقناع أنّ يحث الكثيرين على الانخراط في الحملة الصليبية الشعبية بأسرع ما يمكن، فكان معه أساقفةٌ ورؤساء أديرة، وعامّة الشعب والأشراف، بالإضافة إلى الأشرار والزناة، والقتلى واللصوص(٢).

فقد كان العصرُ عصرَ الرؤى، وظنّ الناس أنّ بطرس كان يعلم الغيب، فاعتقد كثيرٌ من السامعين فيما وعدهم به بطرس من أنّه سوف يخرجهم من حياة البؤس والشقاء التي يعيشونها إلى الأرض التي تفيض باللبن والعسل، التي تحدثت عنها الأناجيل(٣)، تقول أنا كومنينا عن أثر دعوةِ بطرس الناسك في شعوب الغرب الأوروبي للانخراط في الحركة الصليبية(٤): «والعجيب في الأمر أنه نجح في دعواه هذه وكأنّه صبّ في كلّ قلب قبسًا ربانيًّا، فتوافد الناس زرافاتٍ، بعضها في إثر بعض، من شتّى النواحي حاملين أسلحتهم ومستصحبين جيادهم وكلّ تجهيزاتهم الحربية، وفاضت بهم الحماسة والحمية فتزاحموا وساروا عبْر جميع الطرق، وجاء مع هؤلاء المحاربين حشدٌ من المدنيين، كانوا في كثرتهم كرمل شاطئ البحر أو كنجوم السماء في عددهم، وقد حملوا معهم سعفَ النخيل ورسموا الصليب على أكتافهم»، وهكذا دارت عجلة الحروب الصليبية، بفضل حلم بطرس الناسك، وما سبقه من أحلام ورؤى زائفة، قد تمّ استغلالها أسوأ استغلال.

---

(١) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١١٦.

(2) August Krey: The first crusade. PP. 48 0 52.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص١٧٢.

(٤) أنا كومنينا: ألكسياد. ص٣٨٨.

فيروز الزّراد وحلمُ سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين

وصلت طلائعُ الجيش الصليبي الرئيسي إلى مدينة أنطاكية، وكان بوهيمند على رأس قوّة مؤلّفة من أربعة آلاف رجل، أوّل مَن وصل إليها، فتمركز تجاه بابها الشرقي، ثمّ تبعه بقيّة أفراد الجيش الصليبي، وبعد الانتهاء من عمليات التمركز، عمدَ الصليبيون إلى إلقاء الحصار على المدينة من أبوابها الرئيسية، وقاموا ببناء المعاقل الخشبية والأبراج العالية، ولكنّ تطويقهم لها بقي جزئيًّا، نظرًا لطول سورها.[١] فقد كانت مدينة أنطاكيا من أقوى مدن ذلك العصر تحصينًا، بحيث لا يمكن مقارنتُها في مناعتها وقوة تحصينها إلّا بالقسطنطينية[٢].

وفي ظلّ افتقار الجيش الصليبي إلى المؤن وإلى حسن القيادة، كان رجال الدين يعزون الانتصارات التي كان يحقّقها ذلك الجيش إلى عون الله له[٣]. وكالعادة عندما تشتدّ الأزمات على الصليبيين تبرز الرؤى والأحلام المقدسة بقرنيها لتدعم مِن موقف الصليبيين وتشدّ من أزرهم. وكان لسقوط أنطاكيا في أيدي الصليبيين نصيبٌ كبير في هذه الرؤى والأحلام.

في أثناء سيْر الحملة الصليبية الأولى نحو أنطاكيا، كشف أحد تلاميذ أرنولف الشوكي Arnulf of alchocques – بطريرك بيت المقدس بعد احتلال الصليبيين للقدس– له عن نبوءة تدلّ على انتصار الصليبيين من أنطاكية، وكان ذلك التلميذ من المنجّمين[٤]. ويقول المؤرخ

---

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق– دار الآفاق الجديدة– بيروت، الطبعة الأولى١٩٨٤م. ص١٢٢.

(٢) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية– القاهرة– الطبعة التاسعة ٢٠١٠م. جـ١ ص١٥٦.

(٣) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٦٩.

(٤) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٧١.

فوشيه الشارتري وهو ممّن عاصر وشارك في حصار الصليبيين لأنطاكيا[1]: «في تلك الفترة رأينا شعاعًا أحمر في السماء، كما شعرنا بزلزلةٍ عظيمة في الأرض، ممّا أوقع الخوف في قلوبنا، وقد رأى الكثيرون علامةً معينة على شكل صليب، بيضاء اللون، تسير في طريق مستقيم إلى الشرق «وقد حصلت هذه المظاهرُ الضوئية والزلزلة أول عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ. كما يذكر ريموندا جيليزو، ومن المحتمل أنّ العلامة في السماء كانت ضمن هذه المظاهر الضوئية[2]، وقد ذكر فوشيه الشارتري بأنها عبارة عن صليبٍ أبيض اللون، وذلك من باب شدّ أزر بني جلدته للصبر على حصار أنطاكية الذي طال أمده.

وقد ذكر فوشيه الشارتري نفسُه ما يؤكّد على معاناتهم من هذا الحصار فقال:[3] «في عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ، بعد أنْ خلت الأراضي حول أنطاكية من الجموع الغفيرة من شعوبنا، تزايد البؤس في نفوس الكبار والصغار بسبب الجوع الشديد، وأكل الناس جذوع التعليقات التي مازالت تنبت في الحقول، وجميع الأعشاب غير المملّحة، وحتى الأشواك التي لم يستطيعوا إجادة طهيها بسبب انعدام الحطب لإشعال النار، لذا فإنّ عددًا كبيرًا من الناس لم يجدوا لأنفسهم غطاء إلّا السماء». وعلى الرغم من أنّ أنطاكيا قد سقطت في أيدي الصليبيين بناءً على خيانة فيروز الزراد وتعاونه مع الأمير بوهيمند، إلّا أنّ فوشيه الشارتري يرجع الدافع في عملية السقوط إلى الرؤى والأحلام المقدّسة يقول عن ذلك[4]: «ظهر الربّ لتركي معيّن، كانت قد كتبت عليه بركة الله، وقال له: انهض أيّها النائم. إنني آمرك أنْ ترجع هذه المدينة للمسيحيين» استغرب الرجل ذلك، ولكنّه حفظ أمر الرؤيا سرًّا. ظهر الربّ له ثانية، وقال: ارجع هذه المدينة للمسيحيين لأنّني الذي آمر بذلك، أنا يسوع المسيح»، احتار الرجل فيما يفعل وذهب إلى سيده حاكم أنطاكيا وأعلمه بأمر

(١) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٥٥.
(٢) المصدر السابق: ص٩٣، حاشية رقم (١٠٤).
(٣) المصدر السابق: ص٥٥- ٥٦.
(٤) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٥٧- ٥٨.

الرؤيا فأجابه هذا قائلًا: أتريد أيها الغبي أنْ تطيع شبحًا؟» فعاد الرجل ولزم الصمت. ظهر الربّ له مرّة أخرى، وقال: لَمَ لمْ تفعل ما أمرتك به؟ لا تتردّد لأنّني أنا الذي آمرُ بهذا، أنا ربّ الجميع. فلمّا زال الشكّ من نفسه بدأ الرجل يخطّط سرًّا مع رجالنا في مؤامرة تمكّنهم من الاستيلاء على المدينة».

ويقصد الشارتري بالتركي فيروز الزراد الخائن الذي كان في خدمة ياغي سيان- حاكم أنطاكيا- ويطلق عليه اسم بيروس Pirus وبيرهوس pyrrhus وفيروس Firous، كما أنّ له عدّة أسماء أخرى، ويسميه المؤرخ ريموندا جيل «التركي»[1]. على الرغم من أنّ كتابات فوشيه الشارتري تتّصف بالغرور والتعصب[2]، إلّا أنه من خلال تحليل روايته السابقة- والتي يؤكّد فيها على أنّ دافع فيروز للخيانة هو هذا الحلم المقدس- يتّضح عدم صدقها، إذ كيف يشترك الرب- بزعمهم في نسج هذه المؤامرة- كما عبّر عنها الشارتري بهذا اللفظ- من أجل سقوط مدينة كأنطاكيا في أيدي الصليبيين؟ فما سمعنا من قبل عن ربّ ينفّذ إرادته من خلال المؤامرات. ولكنْ لكي نستجلي الدافعَ الحقيقي من وراء خيانة فيروز الزراد وتسليمه المدينة لجحافل الصليبيين؛ يمكن الرجوع إلى المؤرخين الآخرين المعاصرين والمشتركين في أحداث الحصار.

بدايةً لم نعثرْ في أي مصدرٍ من المصادر المعاصرة للأحداث أو المتأخرة عنها؛ عن أي ذكرٍ لهذا الحلم المقدس، أي أنّ فوشيه الشارتري يكاد يكون قد انفرد بذكر هذا الحلم. وذلك على الرغم من أنّ المصادر الأوروبية الأخرى المعاصرة للأحداث لم يكنْ أصحابها أقلّ تعصبًا من فوشيه الشارتري. لكنّ هذه المصادر الأوروبية قد أظهرت الدافعَ الحقيقي من وراء خيانة فيروز.

---

(١) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ترجمة د/ حسين عطية- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية. الطبعة الأولى١٩٩٠م. ص١٢٣. حاشية رقم (١).

(٢) هاري بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية جـ١ ص١١٠.

يقول المؤرخ المجهول[1]: «كان هناك قائدٌ تركي الجنس اسمه فيروز قد توثّقته عُرى الصداقة المكينة بينه وبين بوهيمند، الذي طالما راح يلوح له في الرسائل المتبادلة بينهما بمودّته ويمنّيه بها. وراح يغريه بالشرف العظيم والثروة الوافرة، فوثق فيروز بتلك الأقوال وهاتيك العهود، وقال: إنّني أقوم بحراسة ثلاثة أبراج، وإنّني أعده بها عن طيبِ خاطر، وسأسلّمه إيّاها يوم يشاء، وسأرحّب به فيها».

وقد وافق المؤرخ المجهول مؤرخ صليبي آخر معاصر للأحداث، هو بطرس توديبود الذي يقول عن ذلك الأمر[2]: «عرض بوهيمند أنْ يدخله فيروز إلى أنطاكية، في مقابل ذلك عرضَ عليه النورماندي الدخولَ في المسيحية، إلى جانب ثروة عظيمة من أملاك كثيرة، وقبل فيروز هذه الشروط». وقد وافقت المصادر العربية المصادرَ الصليبية في أنّ الدافع الأساسي للخيانة هو ماديّ صرف، من ذلك قول ابن الأثير[3]: «لمّا طال مقام الفرنج على أنطاكيا راسلوا أحدَ المستحفظين للأبراج، وهو زراد يعرف بروزبه، وبذلوا له مالًا عظيمًا وإقطاعًا، وكان يتولّى حفظ برج يلي الوادي».

غير أنّ هناك مصدرًا صليبيًّا آخر- وإن كان متأخرًا لكن مشهود لصاحبه بالدقّة نحوًا ما- هو وليم الصوري، وقد ذكر سببًا آخر للخيانة يهدم رواية فوشيه الشارتري من الأساس، بل ويوقظه من كلّ أحلامه المقدسة، قال فيها[4]: «جرت حادثةٌ قربَ هذا الوقت شدّت من عزم فيروز على السير قُدمًا في المؤامرة التي دبّرها، ذلك أنه بينما كان مشغولًا أشدّ الانشغال

(١) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. المعروف بالجستا. ترجمة د/ حسن حبشي- دار الفكر العربي- بيروت- لبنان- لم تذكر سنة الطبع ص٦٦.
(٢) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس: ص١٨١.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت. لبنان ١٩٧٩م جـ١٠ ص٢٧٤.
(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية. ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩١م. جـ١ ص٣٤٥- ٣٤٦.

بأداء ما تفرضه عليه واجباته الكثيرة التي يقتضيها وضعُه في بيت مولاه- وهو حراسة برج الأختين- إذْ بأمر عاجلٍ لاندر به أرسل ولده الشاب إلى داره، إذ ما كان الفتى يبلغها حتى طالع منظرًا مشينًا فاضحًا حين شاهد أمّه بين ذراعي أحدِ كبار الأتراك في وضعٍ مُزر أسخطه غاية السخط... فانكفأ سريعًا إلى أبيه، وأخبره بالفضيحة. فحنق فيروز حنقَ الزوج المثلوم في شرفه، ثمّ أرسل ولده إلى القائد بوهيمند يخبره أنه لن يقصّر في شيء من جانبه، بل إنه موفٍ بما عاهده به، وموعدهما الليلة التالية».

وبناءً على رواية وليم الصوري الآنفة الذّكر تتّضح الحقيقة أكثر في دافع فيروز لهذه الخيانة، ويمكن أنْ نتصوّر ونرسم معالمها بأنّ الدافع للخيانة كان الطمع في حفنة من الدنانير والدراهم، ويبدو أنه تردّد في التسليم بدافع الخوف، ثمّ حدثت الخيانة الزوجية، فعالج الخيانةَ بخيانةٍ أكبر، وبدلًا من أنْ ينزل العقاب بزوجته، عاقب كلّ سكّان المدينة بتسليمها لجحافل الصليبيين.

حلمٌ اكتشافِ الحربة المقدسة

لقد وفّى فيروز الزراد بوعده للأمير بوهيمند، فما أنّ أطلت شمس آخر جمادى الأولى سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م حتى كانت راية بوهيمند الحمراء ترتفع على الأسوار، معلنة سقوط أنطاكية، وانطلق الصليبيون عند دخولهم إليها يعملون فيها نهبًا وسلبًا وقتلًا، بدون وعي، فلم يعفوا عن النساء والأطفال والمسنين، وقد تمكّن من الهرب إلى القلعة، نحو الثلاثة آلاف رجل، تحصّنوا بها[١].

وكان ياغي سيان حاكمُ المدينة قد أطلق الاستغاثة عند مجيء الصليبيين إلى أنطاكية، فكان لها صدى بعيدٌ في البلاد الإسلامية، فاستجاب لها بعض الحكام المسلمين، فقد أمر السلطان السلجوقي بركياروق، نائبه في الموصل، الأمير كربوغا تجهيز جيشٍ إسلامي بُغية تقديم النجدة لأنطاكية، فعمل هذا الأخير على اتّخاذ ما يجب عمله لهذا الغرض، وزحف على رأس قوة ضخمة من الموصل باتجاه أنطاكية، لكنّ القوات الإسلامية وصلت إلى أنطاكية متأخّرة، إذ كانت هذه المدينة قد فتحت قبل يوم واحدٍ من قبل الصليبيين، وكان السببُ في هذا التأخير إقدام الأمير كربوغا على محاولة الاستيلاء على مدينة الرها التي أصبحت صليبية، ولكن دون فائدة. وبعد أنْ أخذت الجيوش الإسلامية مواقعَها تحت أسوار أنطاكية ألقت الحصار الشامل عليها من جميع جهاتها[٢].

وما فتئ الصليبيون الذين كانوا يحاصرون أنطاكية بالأمس أنْ وجدوا أنفسَهم محاصرين في المدينة التي احتلّوها، فقد نفدت المؤن والطعام أثناء فترة الحصار السابقة، وانتشرت المجاعة والأمراض بين صفوف الجيش الصليبي خلال تواجدهم في أنطاكيا[٣]. وكانت المجاعة لا

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية. ص١٣٨.
(٢) المرجع السابق: ص١٣٩- ١٤١.
(٣) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص٢٦- ٢٧.

يمكن تحملها، حتى إنهم تمنّعوا بكلّ صعوبة عن أكل لحوم البشر[١]. فأكلوا الأشجار والأشواك وجلود ولحوم الخيول والحمير والبغال والكلاب، وباتت الأشياء القذرة جدًّا؛ لذيذةً للغاية[٢]. ومات الكثيرون جوعًا بسبب ارتفاع الأسعار وقد عانوا تلك الشدائد قرابةَ ستّ وعشرين يومًا[٣]. يقول فوشيه الشارتري عن ذلك[٤]: «انسحب بعضُ رجالنا كما سمعتم، من حصار عظيم الشدّة، بعضهم من الحاجة، وبعضهم من الجبن، والبعض الآخر خوفًا من الموت، انسحب الفقراء أولًا وبعدهم الأغنياء».

أمام هذا الخوف وهذه المجاعة والموت والهروب الجماعي، عادت الأحلام والرؤى المقدسة تطلّ برأسها من جديد، لإنقاذ الصليبيين من هلاك محقّق على وشك الوقوع. يقول وليم الصوري عن ذلك[٥]: «بينما كان شعب الرب يقاسي البلاء على هذه الصورة، إذ بالسيّد يتعطف عليهم ويستمع إلى أنينهم، ويرسل السلوى من كرسيّه السماوي»، وذلك من خلال حلم اكتشاف الحربة المقدسة.

يقول بطرس توديبود عن هذا الحلم[٦]: «قبل استيلائنا على أنطاكية تمثل القديس أندرو[٧] لبطرس بارثليميو[٨] أحد حجّاج جيشنا، وخاطبه كما يلي: أيها الرجلُ الطيب، أنا الحواري

(١) أوتو أسقف فريزنغ: المدينتان. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر، دمشق، سوريا، لم تذكر سنة الطبع. جـ٢٨ ص٣٣١.

(٢) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ- الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص ٥٩.

(٣) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص٢٢٤.

(٤) تاريخ الحملة إلى القدس: ص ٥٦- ٥٧.

(٥) الحروب الصليبية: جـ١ ص٣٩٦.

(٦) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس: ص٢٠٨.

(٧) القديس أندرو St. Andrew: هو حواري من حواري السيد المسيح، والاسم في الأصل يوناني لكنه كان مستعملًا بين اليهود في وقت السيد المسيح، وهو يتمتع بمكانة كبيرة في الإنجيل، ويصور أندرو دائمًا بلحية وشبكة صيد طويلة كصياد سمك.

New Catholic Encyclopedia. Vol 1. P. 402 – 403. St. Andrew .

(٨) لم يكن هذا الخادم- بطرس بارثليميو- بالغ الأهمية برغم وضاعة أصله، إنما اشتهر عند زملائه ورفاقه بأنه شخص سيء السمعة، لا يحفل إلّا بالاستمتاع بمباهج الحياة، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٤٤.

أندرو، يا بني أنصتْ إلى هذه الحقيقة، لو أنك ذهبت إلى كنيسة القديس بطرس بعد أنْ تدخل أنطاكية ستجدُ حربة مخلصنا، عيسى المسيح، التي جرح بها بينما كان معلقًا بالصليب»، واختفى أندرو فورًا بعد هذه الكلمات. ولأنّ بطرس بارثليميو كان يخشى الكشفَ عن عظات القديس أندرو. فلم يروها لحجاجنا، لأنه أدرك أنّه قد شاهد رؤيا. وعاد القديس أندرو وسأله: لماذا لم تخبرِ الحجاج بتعليماتي؟ وردّ بطرس: يا سيدي، مَن ذا الذي سيصدّق هذا؟ وخلال دقيقتين أخذ القديس أندرو بطرس، وحمله إلى أنطاكية حيث المكان المحتمل لاختفاء الحربة. انظرْ إلى هذه. هكذا قال القديس أندرو وهو يسحب الحربة من الأرض ويضعها بين يدي بطرس، وقال له: هذه هي حربة سيدنا عيسى المسيح، التي دفنتها أنا وأخي بطرس الحواري هنا. انظرْ إليهم، ثمّ أعادها القديس بطرس إلى مكانها، ثمّ خاطب بطرس بارثليميو قائلًا: عدْ إلى الجيش».

ثمّ أفضى بطرس بارثليميو بالسرّ الذي استودعه إيّاه الرسول الحواري. فلم يؤمنِ القومُ بما قال، بل أنكروه قائلين له: كيف تعتقد صحة هذا القول؟ والواقع أنّ الخوف كان مستوليًا على نفوسهم، وكانوا يتوقّعون الموت بعد لحظة وأخرى، فذهب بطرس إليهم، وأقسم أنه صادق في كلّ ما قال[1]. كما أخبر هذه القصة للأمير ريموند[2] والأسقف أدهيمار[3] أيضًا[4]. ثمّ تستطرد المصادر الأوروبية المعاصرة للأحداث بقيّة القصة بأنهم لّما سمعوا أقوال الذي نقل

(١) مجهول: الجستا. ص٨٢- ٨٣.

(٢) غالبًا ما استخدم المؤرخون اللاتين والمؤرخون المسلمون اسم كونت سان جيل، للإشارة إلى كونت تولوز- ريموند- وكانت سان جيل- زمن الحملة الصليبية الأولى- مدينة مزدهرة، وتقع عند مصبّ نهر الرون، ودرج المؤرخون المسلمون على تسمية كونت تولوز باسم الصنجيل، ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص٥٥. حاشية رقم (٦).

(٣) الأسقف أدهيمار Adhemar: كان راعي أبرشية لي بوى Le Puy وهو من أوائل الصليبيين تلبية لنداء البابا أوربان في كليرمونت، وأراد البابا أوربان أنْ يجعل الحملة كنسية فعيّن أدهيمار قائدًا أعلى وزعيمًا أوحد، وخوله البت في جميع الاختلافات التي تنشأ بين الصليبيين. د/ أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية. جـ٢ ص٢٦٥.

(٤) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص١٢٧.

إليهم إيحاء المسيح على لسان الرسول، انطلقوا بأقصى سرعة شطرَ ناحية كنيسة القديس بطرس التي ذكرها[١]. ويكمل ريموندا جيل الرواية قائلا[٢]: «حمل اثنا عشر رجلًا، ومعهم بطرس بارثليميو الأدواتِ اللازمة، وبدؤوا يحفرون في كنيسة بطرس المبارك، وكان من بين الاثني عشر أسقف أورانج وريموندا جيلُ كاتبِ هذه السطور. وظللنا نحفر حتى المساء، ويئس البعضُ من إخراج الحربة من تحت الأرض... ولكنّ بطرس بارثليميو الممتلئ شبابًا عندما رأى الإرهاق قد أخذَ من رجالنا كلّ مأخذ، تجرّد من ملابسه الخارجية، ونزل الحفرة حافي القدمين وليس عليه إلّا قميص، وأخيرًا أظهر لنا الله برحمته المباركة، حربته[٣] وقبّلت أنا ريموند مؤلف هذا الكتاب سنّ الحربة، عندما برزتْ من الأرض، ولا أستطيع أنْ أصف السعادة والابتهاج اللذين غمرا أنطاكية».

باستعراض آراءِ مؤرخي الحملة الصليبية الأولى بشأن هذه الرؤيا، وشأن صاحبها نجد أنّ رادولف أوف كان Raduaf of caen لم يخف تشككه في بطرس وفي رؤياه نفسها[٤]. في حين يعير ريموندا جيل قصة الحربة المقدسة اهتمامًا أكثر ممّا أعارها المؤرخون الآخرون، بل ويحيكُ الأحداثَ مع المعجزات ليلبس روايته ثوب الحقيقة[٥].

ومِن الطبيعي أنْ تكون روايات ريموندا جيل عن الرؤيا أكثرَ تفصيلًا من روايتي مؤلف الجستا وتوديبود. فمَن جاءوا وروَوا ما شاهدوه من رؤى كانوا جميعًا من بني جلدته البروفنساليين، والذين تبعوا سيده الكونت صنجيل إلى الشرق وهو- أي ريموندا جيل- كان

(١) مجهول: الجستا. ص ٨٩- ٩٠.
(٢) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس: ص١٣٣.
(٣) تقول أنا كومنينا على الدوام «المسمار» على حين أنّ اللاتين يقولون «الحربة المقدسة» التي طعن بها المسيح. أنا كومنينا: ألكسياد. ص٤٥٧ حاشية رقم (٢٥).
(٤) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص١٣٦. حاشية رقم (١).
(٥) المصدر السابق: ص١٣٥. حاشية رقم (١).

يشاركهم حياتهم اليومية، وربما كان يجالسهم ليعرف منهم التفاصيل التي سجلها في تاريخه، هذا أنْ لم يكن لريموندا جيل دورٌ في اختلاق قصة هذه الرؤى[١]. فقد كان ريموندا جيل بمساعدة بعض المتواطئين هو الذي خطط ونفّذ خدعة اكتشاف الحربة المقدسة في أنطاكية، ولمّا وجّه إليه هذا الاتهام، كتب تاريخه عن الحملة الصليبية كدفاعٍ عن نفسه، ولكنه أثناء محاولته تبرئة ساحته، قد كشف- دون قصد- عن ذنبه[٢].

فقد أكّد ريموندا جيل نفسه عن عدم تقبل مجموعة كبيرة من الصليبيين لهذه الرؤيا وغيرها من الرؤى الأخرى التي ذكرها بطرس بارثليميو بعد ذلك. يقول ريموندا جيل[٣]: «عندما حكينا هذه الأشياء للأخوة، قال البعض إنهم لن يصدقوا أبدًا أنّ الربّ قد أجرى حوارًا مع رجل كهذا، متغاضيًا عن الأمراء والأساقفة، ومظهرًا نفسه لفلّاح جِلْف أُمّيّ، بل إنّهم تمادوا حتى راحوا يلقون الشكوك حول الحربة المقدسة».

وقد ذكرت بعضُ المصادر العربية صراحةً بأنّ بطرس بارثليميو هو مَن دفن بنفسه هذه الحربة، من ذلك قول ابن الأثير[٤]: «وكان قد دفنَ قبل ذلك حربة في مكان في القيسان- الكنسية- وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلمّا كان اليوم الرابع أدخلهم الموضعَ جميعهم، ومعهم عامّتهم، والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر». ذلك أنّ الكاتدرائية- كنيسة القديس بطرس- عند إعادة تطويرها جرى تطهيرها وتنقيتها من كلّ أثر، ولعلّ بطرس بارثليميو ابتكر هذه المسألة بعد عودته إلى أنطاكية، التي لم يكشف عن تاريخها، وبذا يصحّ أنْ تهيأت له الفرصة لمواراةِ قطعة من الحديد تحت أرضية الكنسية، والواقع أنّ بطرس كان مدّعيًا كذوبًا[٥].

(١) بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص٢٢٠ حاشية رقم (٣٦).
(٢) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص٣٤. مقدمة الترجمة العربية.
(٣) المصدر السابق: ص٢٠٠.
(٤) الكامل في التاريخ: جـ١٠ ص٢٧٧.
(٥) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٤٩.

والحقيقة أنّه تمّ اختلاق حلم الحربة المقدسة للخروج من مأزق الحصار الذي كانوا يعانون منه، إذ لا مفرّ لهم سوى الخروج للقتال، ولكن ليس قبل شحن الروح المعنوية لجموع الصليبيين عن طريق الرؤى والأحلام المقدسة، وقد أكد على هذه الحقيقة العديدُ من المؤرخين، يقول وليم الصوري[١]: «كانت هذه هي أحاسيس الجميع الذين لم يعدْ ثمّ مفرّ أمامهم من الخروج من المدينة لمقاتلة العدو، ولم تقتصر هذه الرغبة على النبلاء وحدهم، بل كانت تلتهب في نفوس العامة أيضًا». ويقول المؤرخ الرهاوي المجهول عن ذلك أيضًا[٢]: «فأصبحوا يرون أنّ الموت في المعركة خارجًا أفضلُ من الموت داخل البيوت كالنساء».

أمّا عن قادة الحملة الصليبية الأولي. فقد أظهر كونت تولوز اعتقاده في حقيقتها، ثمّ ما لبث أنْ أبدى ارتيابَه فيما إذا كانت رؤى بطرس لازالت حقيقة، أمّا بوهيمند[٣] فبالرغم من أنّ بطرس بارتلثميو قد قرّر أنه لا بدّ من السماح لبوهيمند بامتلاك أنطاكية، وذلك بعد وفاة أدهيمار بيومين، فإنّ بوهيمند أعلن اندهاشه وتشكّكه في أنْ يظهر المسيح أو القديسين لرجلٍ فاسق مثل بارثليميو، اعتاد ارتياد الحانات والتسكّع في الطرقات. كما يتساءل بوهيمند أمام جموع الفرنج عن أي من المؤرخين قد كتب أنّ الحربة التي طعن بها المسيح قد وصلت إلى كنيسة بطرس في أنطاكية[٤]. أمّا عن جموع الجيش الصليبي فكان من الطبيعي أنْ يؤيد البروفنساليون منهم رؤى بطرس، بينما أبدى فرنسيو الشمال وبقية الجيش تبرمَهم من بطرس ورؤاه[٥].

أمّا عن موقف رجال الدين من رؤيا الحربة المقدسة، فيقول ريموناجيل نفسه- باعتباره من أكثر المتحمسين لها- عن الأسقف أدهيمار[٦]: «اعتبر الأسقف هذه القصة زائفة»، فقد اعتبر

(١) الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٩٨.
(٢) مجهول: المؤرخ الرهاوي المجهول. تحقيق د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر. دمشق. سوريا. لم تذكر سنة الطبع جـ٥ ص٢٤.
(٣)كان الكونت بوهيمند وفرسانه يسخرون من هذه الرؤى. جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى ص١٧٨.
(٤) كانت هناك بالفعل حربة أخرى بالقسطنطينية. المرجع السابق: ص١٧٦.
(٥) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص١٣٦- ١٣٧. حاشية رقم (١).
(٦) المصدر السابق: ص١٣٠.

أدهيمار أنّ بطرس بارثليميو شخصٌ سيء السمعة، لا يصحّ الاطمئنان إليه والوثوق به، ولعلّه تذكّر أنّه رأى بالقسطنطينية حربة مقدّسة، ظلّ أمرُ أصالتها وحقيقتها موضعَ جدلٍ ونقاش زمنًا طويلًا، وبفضل خبرته باعتباره من رجال الكنيسة، لم يثقْ فيما يصدر عن الجهلاء من الرؤى[١] فقد رفض الأخذَ برؤى بطرس بارثليميو، الأسقف أدهيمار على الرّغم من أنه يمثّل الجانب الروحي في الحملة الصليبية الأولى، وأنّ مثل هذه الرؤى، خاصّة إذا ما تمثّل فيها المسيح وبعض حوارييه لراويها، تقوى جانب الكنيسة، ومركز أدهيمار دي مونتيل نفسه[٢].

أمّا عن تأثير حلم الحربة المقدّسة واكتشافها- بغضّ النظر عن حقيقتها- في الروح المعنوية لجحافل الصليبيين، فقد انتشر خبرُ العثور عليها بين جميع المقاتلين الصليبيين انتشارَ النار في الهشيم، ودبّ فيهم حماس غريب، وامتلأت نفوسهم روحانية هائلة، كما قويتْ عزائمهم على القتال والفداء[٣]، يقول فوشيه الشارتري عن ذلك[٤]: «وقد استمدَدْنا الطمأنينة والقوة من هذا الاكتشاف وغيره من الإيحاءات، فبعد أنْ تملكتنا الكآبة والوجل أصبح الواحدُ منّا يحبّ الآخر بكلّ شجاعة وتحفز على القتال».

وقد حرص الصليبيون على إذاعة خبر حلم الحربة المقدسة في أوروبا كلّها- على الرغم من إثبات زيفه- وذلك لدفع القواعد من الأوروبيين للانخراط في سلك الحملات الصليبية الاستعمارية، فقد جاء في خطاب زعماء الصليبيين إلى البابا أوربان الثاني حول الأحداث التي مرّت بهم حتى سقوط أنطاكية، والذي كتب في ١١ سبتمبر ١٠٩٨م/ ٤٩٣هـ: وإذا استرحنا لهذا الكشف وبفضل عددٍ كبير من الرؤى والأحلام المقدسة، قويَ ساعدنا لدرجة أنّنا بعد أنْ تملّكنا التخاذل والتقاعس من قبل، صرْنا وقتذاك نحثّ بعضنا بعضًا على القتال في شجاعة وإقدام

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٤٦.
(٢) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص١٣٥- ١٣٦ حاشية رقم (١).
(٣) د/ تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج. ص٧٦.
(٤) تاريخ الحملة إلى القدس. ص٦٥- ٦٦.

متناهيين[١] وقد أدّت هذه الرؤيا إلى رفع معنويات الجيش الذي عبّر عن شجاعته وإقدامه في هجوم استمرّ يومًا كاملًا ضدّ قوات الحصار الإسلامية، وتفرق الجيش التركي المهزوم واختفى، ولم يكن هناك جيشٌ إسلامي آخر يمكنه سدّ الطريق إلى القدس[٢].

يقول ابن تغرى بردى عن معركة فكّ الحصار عن أنطاكية بين المسلمين والصليبيين[٣]: «والعجيبُ أنّ الفرنج لمّا خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرّقوا جموعهم».

ويقول ريموندا جيل مبالغًا في أثر الحربة المقدسة في هذه المعركة[٤]: «ومع التفوق العددي- أي للمسلمين- فإنهم لم يجرحوا أيًّا من رجالنا أو يطلقوا سهامهم علينا، لا شكّ بسبب حماية الحربة المقدسة لنا. وقد كنت شاهدًا على هذه الحوادث، وحاملا[٥] للحربة المقدسة». وبعد هذه المعركة صار الصليبيون على قناعةٍ بأنّ التفسير الوحيد لتقدّمهم الظاهر، هو أنّ يدَ الربّ كانت تتدخل لمساعدتهم ماديًّا، وأنّ الربّ كان يوافق بالفعل على ربط الحرب المقدّسة بالتوبة والحج[٦].

(١) د/ قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى. ص٢٤٧- ٢٤٩.
(٢) يوشع براور: عالم الصليبيين. ص٥٥.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع. جـ٥ ص١٤٨.
(٤) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس: ص١٤٦.
(٥) ذكر روبرت الراهب بأن الذي حمل الحربة المقدسة في المعركة هو أسقف لي بوى Le Puy يقصد بذلك أدهيمار، وهي رواية غريبة لا تتفق مع إنكاره لفكرة الحربة.
Robert the Monk: historia iheroseolimitana carol sweetenham. crusade texts in translation 11. Ashgate publishing. England. 2006. P. 167.
(٦) جوناثان سميث: تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية. ص١٢٣- ١٢٤.

تتابعُ الرّؤى والأحلام لفكّ الحصار عن أنطاكيا

لم يكن حلمُ بطرس بارثليميو، والذي ترتّب عليه اكتشاف الحربة المقدسة المزعومة، هو الحلمَ الوحيد الذي ابتكره قادة الصليبيين من السياسيين ورجال الدين لرفع الروح المعنوية وزيادة الحماسة الدينية عند جحافل الصليبيين المحاصرين داخل أنطاكيا من قبل الجيش الإسلامي، بل توالت الأحلام والرؤى المقدسة من قبل الصليبيين للمساعدة في تخفيف حدة الحصار، بل والعمل على فكّه في أقرب فرصةٍ مُمكنة. وكانت هذه عادةَ الصليبيين طوال فترة الحروب الصليبية، فعندما يتعرضون للمعضلات، يلجئون للعصا السحرية المتمثّلة في الرؤى والأحلام المقدسة، للخروج من أي مأزق.

يقول بطرس توديبود عن إحدى هذه الرؤى، والتي تعرف باسم حلم ستيفن[1]: «وذات يومٍ بينما كان زعماؤنا مجتمعين أعلى التلّ المواجه للقلعة، إذ صعدَ إليهم قسّ يدعى ستيفن، وقال: سادتي، ربما يسركم أنْ تسمعوا قصتي عمّا رأيته ذاتَ ليلة بينما كنت مضطجعًا في كنيسة القديسة مريم، أم سيدنا عيسى المسيح؛ إذْ ظهر أمامي مُخلّص العالم تصحبه أمّه مريم، وبطرس أول الحواريين ووقف المسيح أمامي، وظهر فوق رأسه صليبٌ كامل الهيئة، وفي الحال خررت ساجدًا، صارخًا ومتوسلًا في ضراعة أنْ يعيننا على التصدي لحصار هذا الجنس الملعون لنا، الذي حصرنا داخل أنطاكية. وردّ السيد على توسّلاتي قائلًا: لقد أحسنت مساعدتكم وأنا مستمرّ في مساعدتكم بدرجةٍ كبيرة، وفي الحقيقة لقد سمحتُ لكم بأخذ مدينة نيقية والانتصار في كلّ المعارك التي خضتموها، لكن كثيرٌ من المسيحيين ارتكبوا الفواحش، وتصاعد النتنُ إلى عنان السماء. حينئذ ركعت مريم العذراء والحواري المبارك بطرس أمام المسيح مبتهلينَ أنْ يقدّم

(١) تاريخ الرحلة إلى القدس: ص٢٠٥- ٢٠٧.

عونه لَمن تبقّى على قيد الحياة من المسيحيين في كربتهم، ومِن ثمّ أصدر إليّ السيد تعليمات قائلًا: ستيفن، أخبر شعبي أنْ يرجع إليّ، وسأعود أنا إليه، وبعد خمسة أيام سآمر بأعظم مساعدةٍ ممكنة للمسيحيين»، حقيقة لقد أخبرني السيد بذلك، سادتي، إنْ كنتم في شكّ من حقيقة رؤياي، فسوف أعتلي برجًا عاليًا، وألقي بنفسي، وإذا كتبت لي النجاة فسوف تأخذون بروايتي كحقيقة، وإذا ما مسّني الضرّ بأي شكل، فلتضربوا عنقي، أو ألقوا بي في نار مشتعلة».

وقد منع أدهيمار القيام بهذا التحكيم- أنْ يلقى في نار مشتعلة ليدلّل على صدق رؤياه- وأمر بإحضار الكتاب المقدس والصليب، وجعل ستيفن يقسم على صدق ما قال[١]. وفي تلك الساعة، اتّفق زعماء الصليبيين أنْ يقسموا أيضًا بألّا يحاول أحدُهم أنْ يفرّ أو يهرب من الموت أو إنقاذ حياته[٢]. وقد ارتفعت الروحُ المعنوية في الجيش حينما ذاعت أنباءُ اليمين، يضاف إلى ذلك أنّ ما أشار إليه ستيفن من أنّ علامات رضا الله سوف تظهر بعد خمسة أيام، أيد دعوى بطرس بارثليميو، وساد في المعسكر الأمل في النجدة[٣].

وقد أبدى أدهيمار دي مونتيل استعداده لأنْ يصدّق هذه الرؤية ويعتبرها صحيحة، فالمعروف أنّ ستيفن كان من رجال الدين المشهورين بالسمعة الطيبة، يُضاف إلى ذلك أنه أقسمَ على الإنجيل أنّه يقول الصدق[٤]. وقد أمر أدهيمار بعد موافقة الجميع بالصوم[٥] ثلاثةَ أيام،

(١) بطرس توديبود: تاريخ الحملة إلى القدس. ص٢٠٧.
(٢) مجهول: الجستا. ص٨١- ٨٢.
(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٤٨.
(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٤٧.
(٥) الصوم Fast: في العقيدة المسيحية هو الإمساك الكلى أو الجزئي عن كلّ الطعام أو الشراب مدة من الزمن، وفي العهد القديم والعهد الجديد يظهر الصوم إلى جانب الصلاة والصدقة، كأحد أعمال الدين الثلاثة الأشدّ تحفيزًا، وهناك الصوم الكبير أو الأربعيني Lent وهو أربعون يومًا ينصرف فيها المسيحي إلى التوبة بالصوم استعدادًا لأعياد الفصح. اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص٣٠٢.

وأنْ يعترف الجميع بخطاياهم بقلبٍ نقي، وأنْ يشاركوا بعضهم البعض في الطعام، فصاموا الثلاثة أيام في خضوع تامّ، مجتمعين حول الكنائس راجين رحمة الرب[١].

لقد استغلّ بوهيمند بطرس بارثليميو ونبوءته خيرَ استغلال، فلم يكتفِ بدفع الناس للحرب، بل جعلهم يصومون أيضًا ليحلّ مشكلة التموين المستعصية[٢]. لا ريبَ أنّ هذا الصيام المتكرّر كان له وقعٌ كبير في نفوس الصليبيين، فما كان بإمكانهم أنْ يمتنعوا عن هذا الصيام، لأنّ عدم الصيام كان يعني ازدياد حدّة مشكلة المجاعة التي كانوا يعانون منها بالفعل[٣].

ويبدو أنّ حلمَ الحربة المقدسة، وحلم ستيفن[٤] الذي وعدهم بالنصر بعد خمسة أيام، وكذلك حلم الصوم، لم يقنع الكثيرين من الصليبيين، ففكر بعضهم في الفرار من أنطاكيا بالفعل، وهنا تتدخّل الرؤى والأحلام المقدسة لمعالجة هذه المشكلة أيضًا.

يقول فوشيه الشارتري عن ذلك[٥]: «في تلك الأثناء، أراد كثيرٌ من الفرنجة أنْ يهبطوا ليلًا من الأسوار بالجبال، ويهربوا خائفين من الموت جوعًا أو بحدّ السيف، وقد ظهر أمام أحدِ الهابطين شقيقه الذي كان قد مات وقال له: إلى أين أنت هاربٌ يا أخي؟ اقعدْ ولا تخف، فإنّ الربّ سيكون معكم في نضالكم. وإن رفاقكم في هذه الرحلة الذين سبقوكم إلى الموت، سيحاربون معكم ضدّ الأتراك «فأصابت الدّهشة الرجلَ لسماع كلام من مات، وامتنع عن الفرار، وأخبر الباقين بما جرى». أي أنّ هذه الرؤيا الساذجة قد تمّ إذاعتها في المعسكر الصليبي ولم تكن مجرد خبر تاريخي سجله فوشيه الشارتري فيما بعد في كتابه.

---

(1) Robert the monk: P. 167.

(٢) د/ تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج. ص٧٧.

(٣) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٥٨.

(٤) يضع ريموندا جيل رؤيا ستيفن بعد رؤيا بطرس بارثليميو بليلة واحدة، في حين يضعها كلّ من توديبود ومؤلف الجستا قبل رؤيا بطرس بارثليميو. بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص٢١٦. حاشية رقم (٢٩).

(٥) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٦٠.

وذهب فوشيه الشارتري إلى أبعد من ذلك فأدخل الرب في هذه اللعبة كي يعطي هذه الرؤى نوعًا من القداسة والاهتمام، للقضاء على مشكلة الفرار، لما لها من خطورة قد تودي بحياة الصليبيين جميعًا في أنطاكيا. فيقول فوشيه الشارتري في رواية أخرى[1]: «في تلك الأثناء ظهر الربّ، غير ناس عباده لكثيرٍ من الناس، ظهر الربّ لرجلِ دينٍ معين كان فارًّا لخوفه من الموت. وقال له: إلى أين أنت ذاهب يا أخي؟ فأجاب: إنّني فارّ لئلّا يسعفني سوءُ الحظ وأهلك. فأجاب الربّ رجل الدين: لا تهرب، بل عدْ وقلْ للآخرين إنّني سأكون معهم في المعركة، فقد طمأنت نفس صلوات أمّي، وسوف أكون رحيمًا على الفرنجة، وقد أوشكوا على الهلاك بسبب خطاياهم. دعْ أملهم في أنْ يكون ثابتًا، وسوف أكتب لهم النصر على الأتراك. دعْهم يتوبون، وسوف يخلصون لأنني أنا الذي أكلمك أنا الرب»، فرجع رجلُ الدين في الحال وذكر ما سمع».

ويقول ريموناجيل عن ذلك أيضًا[2]: «وانتشرت قصص التجليات[3] التي تظهر لزملائنا- على حد تعبير ريموناجيل- ورأينا نحن أيضًا إحدى العجائب في السماء، فقد رأينا نجمًا كبيرًا معلقًا فوق أنطاكيا لوقت قصير، ثمّ يتفتت إلى ثلاثة أجزاء، ويسقط داخل المعسكر التركي، وتشجع الصليبيون إلى حدّ ما، وترقبوا بلهفة اليومَ الخامس الذي أعلن عنه الكاهن»، ولا عجب في مثل هذه الروايات لأنّ مؤرخي العصور الوسطى نظروا إلى الحياة نظرةً بدائية مليئة بالأوهام والخرافات، ممّا جعلهم غير مسئولين عمّا يكتبون، ولم تكن هناك علوم طبيعية يستندون إليها في مقاومة الخرافات والمعجزات، وكذلك لم يكن هناك علم اجتماع يمكنهم من نقد أوضاع المجتمع الذي يعيشون فيه[4].

---

(١) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٦٠.

(٢) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص١٣٣.

(٣) معنى التجلي في اليونانية: ماتومورنوسيس، أي بدا الشكل، وهو ظهور شخص في شكل (مورفي) يختلف عن شكله العادي، وتشير هذه اللفظة إلى الآلهة الذين يظهرون في شكل بشرى، كما في المثيولوجيا. الأساطير اليونانية والرومانية. الفغالي: المحيط الجامع ص٣٢٢.

(٤) هاري بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية. جـ١ ص١٤١.

غيْر أنّ الصليبيين في أنطاكية تشجعوا، واشتدّت عزيمتهم عندما تناقلوا فيما بينهم أنباءَ ظهور المسيح، والعذراء مريم، والقديس بطرس[١] والقديس أندرو[٢]، فقد ظهر القديس أندرو تسعَ مرّات على الأقلّ لبطرس بارثليميو، وقد أبلغه القديس أندرو أثناءَ تلك الزيارات أنّ الله أحبّ الصليبيين، وأنه قد اختارهم من دون البشر جميعًا، وأنّ القديسين سيعودون للحرب بجانبهم[٣].

وعلى الرغم من أنّ الرؤى كانت تحدث للمسيحيين الشرقيين واللاتين أيضًا وتحدثُ على نطاق واسعٍ بين طبقات الصليبيين، فإنّ عدد الرؤى التي شاهدها صليبيون من جنوب فرنسا وإقليم بروفنس لا يقلّ عن ستّ رؤى، كلها لأتباع ريموند السانت جيلي، وأدهيمار، ومِن بين الذين شاهدوا رؤى، أسقف أبت Apt، القس سيمون، وشاهد قسٌّ آخر ستَّ رؤى اسمه بطرس دزيدريوس Peter Desiderius وشاهد بطرس بارثليميو ثلاثَ عشرة رؤيا[٤].

وقبل أنْ يخرج الصليبيون إلى قتال كربوغا. قام الأسقف أدهيمار دي مونتيل بإلقاء خطبةٍ على الصليبيين وهو مُمسك بالحربة المقدسة في يده اليمني، وفتح فمه وقال لهم: «كلّنا إخوة وأبناءٌ للرب، ومرتبطون بالحبّ الروحي، لذلك دعونا نحارب سويًّا، لنحمي أرواحنا وأجسادنا، وتذكّروا، كم عانيتهم لتكفروا عن خطاياكم، لأنّ الربّ رسم خطةً مناسبة لكم، وذلك من خلال الرؤى التي أرسلها لكم. فلماذا الخوف؟ فلن يمسّكم أيّ حظّ سيء، فالرجل الذي سيموت هنا سيكون أسعد ممّا هو فيه الآن، لأنه سينال المتعةَ الخالدة في الحياة الخالدة. إنّ الربّ أرسل لكم جحافل القديسين لينتقموا لكم ويحاربوا معكم، ولينصرونكم على أعدائكم،

(١) بنت روما زعامتها على أساس النظرية البطرسية Petrine Theory وهذه النظرية تقول: أنّ بطرس باعتباره أمير الرسل قد عهد إليه «أي البابا» بالسلطة العليا على الكنيسة، وقد سلم بطرس مكان الصدارة هذا لخلفائه أساقفة روما. د/ محمود عمران: حضارة أوروبا العصور الوسطى. ص٩٧.

(٢) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١١١.

(٣) المرجع السابق. ص١٩٢.

(٤) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٨٤.

وسوف ترونهم اليومَ بأعينكم عندما تحاربون، وسيحدثون جلبةً عندما ينزلون، فلا تخافوا من هذه الأصوات، بل يجب أنْ تعتادوا على رؤياهم لأنهم جاءوا لمساعدتكم، لكن عيون الأعداء ستضعف حين ترى جنود السماء. لذا تقدموا نحو الأعداء باسْم الربّ يسوع المسيح، وسيكون الربّ القوي معنا»[1]. وقد أمسك أدهيمار بالحربة المقدسة في يده اليمنى على الرغم من عدم تصديقه لها؛ لأنّ الموقف العام كان يقتضي عليه فعلَ ذلك.

إنّ هذه الرؤى إنما تعكس عن مدى السذاجة الدينية التي اتّصف بها فرنج الحملة الصليبية الأولى- كما اتّصف بها فرنج الحملات الصليبية الأخرى- وإيمانهم بالمعجزات والخرافة، الأمرُ الذي استغله ريموناجيل- باعتباره من أكثر المؤرخين رواية لهذه الرؤى- والمجموعةُ التي جاء هو على رأسِها من المتحمسين الصليبيين الذين أفادوا من حُسن نية وخزعبلات الفرنج وسذاجتهم الدينية، ليخطط مع هؤلاء المتواطئين، وينفّذ خدعة الحربة المقدسة في أنطاكية[2].

(1) Robert the monk: P. 169.

(٢) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص٢٢١. حاشية رقم (٣٦).

فكّ الحصار عن أنطاكية وقتالُ الملائكة والقديسين

لم يرَ الصليبيون بدًّا- والحالة هذه- من مجابهة المسلمين، وقتالهم، لوضع حدٍّ للحصار المضروب عليهم والأخذ بخناقهم، مهْما كانت النتيجة فهبّوا في الصباح للتجمّع أمام باب المحمرة، ثمّ الخروج من المدينة بصورة متتابعة، كلّ فرقة بعد الأخرى. ولمّا بدأ الصليبيون بعبور النهر، وقبل أنْ تصبح جموعهم على ضفته اليمنى حيث يعسكر الجيش الإسلامي، أشار بعضُ الأمراء على الأمير كربوغا، بوجوب مهاجمة كلّ فرقة أثناء خروجها على تلك الصورة منفردة، فرفض الأخذَ برأيهم، وهكذا فاتت الفرصة على المسلمين، بسبب تعنّت قائد جيشهم كربوغا، وتفرّده برأيه، فأدّى إلى إفساح المجال لتلك الكتائب للخروج سالمةً من المدينة، وبالتالي للتجمّع كتلة واحدة، ممّا مكّن الفرنجة من إحراز النصر على جيش كربوغا، ولم يكتفِ الصليبيون بهذا النصر الذي أحرزوه أمام المدينة، إنما راحوا يتعقبون فلولَ الجيش الإسلامي المنهزم، ويعملون السيفَ في كلّ مَن يقع في أيديهم[1].

على الرغم من أنّ النصر الذي حققه الصليبيون على المسلمين، يرجع في الأساس إلى الخطأ العسكري الذي ارتكبه قائدُ الجيش الإسلامي كربوغا، بتعنّته واستبداده في الرأي، إلّا أنّ الصليبيين يُعْزون ذلك النصر إلى شيء آخر، هو وقوفُ جيوش من الملائكة والقديسين مع الصليبيين في حربهم ضدّ المسلمين أثناء فكّ الحصار الإسلامي عن أنطاكيا.

بدايةً كانت الشعوب الأوروبية قبل الحروب الصليبية لديها اتجاه متزايد إلى تقديس كبيرِ الملائكة ميخائيل[2]، الذي روتِ الأساطير أنه قاد معركة في سبيل الربّ في مونت جورجانو

(١) برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق. ص١٤٦- ١٤٨.

(٢) ميخائيل Michael: أكبر الملائكة في التقليد اليهودي والمسيحي، ويصور بصورة حامي إسرائيل، ورئيس الملائكة في محاربتهم للشيطان. اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص٤٩٥.

في القرن الخامس الميلادي، وقد صار مزارُه في هذه البقعة من أهمّ المزارات التي كان يحج إليها النورمان... وقد روّجَت أسطورة قيادة ميخائيل لجيوش السماء للسؤال القائل: إذا كان الربّ يتقبّل الخدمة العسكرية من الملائكة فلماذا لا يتقبّلها من البشر أيضًا؟ خاصة المسيحيين[١].

يقول أحدُ المؤرخين الأوروبيّين عن سبب انتصار الصليبيين على المسلمين في معركة فكّ الحصار الإسلامي عن أنطاكيا[٢]: «ساد الشكّ حول: إلى جانبِ مَن سيكون النصر، لكن حدث فجأة أنْ شوهد جيشٌ كان مخفيًّا، ينزل من الجبال، وكان مقاتلوه يمتطون خيولًا بيضاء، ويحملون أعلامًا بيضاء في أيديهم، وعرف الأمراءُ مِن بينهم القديس جرجس، والقديس ديمتريوس والقديس ميركوريوس Mercurius، وبعث هذا المشهد الذي أرعب المسلمين آمالًا جديدة في نفوس الصليبيين، ولم يرَهُم الجميع، بل فقط الذين سمح الربّ لهم بمشاهدة مقاصده السريّة، ورأى بعضُ رجالنا أيضًا ملائكةً يطيرون في الهواء، ويرسلون صواعق مُحرقة على الفارين»، ويضيف بطرس توديبود على الرواية السابقة بأنه عندما شاهدَ رجالنا هذا الجيش- من الملائكة والقديسين- أصابهم الذهول، حتى أدركوا أنّ هذه هي المساعدة التي وعدهم بها المسيح، تمامًا كما تنبّأ القس ستيفن.[٣] فقد كانت المساعدة الإلهية نقطةَ التحوّل في الحملة الصليبية الأولى والانتصار الذي تحقّق في أنطاكية في ٢٨ يونيو ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ، كان بالنسبة لكثير من الصليبيين قد تمّ بمساعدة من جيشٍ مِن الملائكة والقديسين، وأشباح موتاهم[٤].

وكان هذا الحدثُ وراء ظهور صورة القديس جورج على عُملات ولاية أنطاكية بعد خضوعها للصليبيين، وفي أوروبا ظلّت مساعدة القديس جورج للحملة الصليبية الأولى

(١) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص٣٩.
(٢) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٦٧.
(٣) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس: ص٢٣٠.
(٤) جوناثان سميث: تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية. ص١٢٣.

موضوعًا للرسومات والتماثيل لعشرات السنين[١]. وهذا يدلّ على مدى استغلال الصليبيين لهذه الرؤى والأحلام للتلاعب بالعواطف الدينية عند السذج من أبناء الغرب الأوروبي لدفعهم للانخراط في سلك الحروب الصليبية الاستعمارية.

لقد كانت أكثرُ القصص غرابةً هي التي قالت، إنّ جيشًا من القديسين والموتى الصليبيين شاركوا المسيحيين في معركة أنطاكية، وأنّ هذا الجيش قدّم التحية للحربة- المقدسة- عند مرورها، وذلك بأنْ نكّس لها بيارقه وأعلامه[٢]. فعلى الرغم من أنّ المؤرخ الشهير وليم الصوري كان مِن مؤيدي حلم الحربة المقدسة، إلّا أنه اعتبر مَن قال بأنّه رأى الملائكة في معركة أنطاكيا أو قبلها هو مجرّد ادّعاء، يقول عن ذلك[٣]: «كان هناك البعض الذين ادّعوا أنهم رأوا رؤيا العين أشباحَ الملائكة، والرسل الطوبانيين، وكان ادّعاؤهم هذا تعزيزًا لتقوية إيمانهم بحلم بطرس- بارثليميو- فارتفعت نفسية الناس، القانطة الخائرة، ارتفاعًا عجيبًا».

أمّا عن حقيقة قتال الملائكة مع الصليبيين في معركة فكّ حصار أنطاكيا فقد كانت عبارة عن خطة بارعة هيّأها بوهيمند، فأثناء المعركة أخرج عددًا من الفرسان من تلّ مقابل، يلبسون ثيابًا بيضاء ويحملون صلبانًا ويمتطون خيولًا بيضاء، وحسب الخطة خرج من بين صفوف الجيش الصليبي صوتٌ يقول: إنّ الملائكة ومعهم جميع القديسين نزلوا من السماء لمساعدة إخوان الصليب، فازدادت نفوس القوم اشتعالًا وقد زاغت أبصارهم، وارْبدت سحنهم، وأخذوا يتسابقون للموت[٤]. فلم يكنْ هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير في ملحمة «الحرب المقدسة» أكثرَ من إشاعة أنباء بعض الرؤى المقدسة، واشتراك القديس جورج في المعارك[٥].

---

(١) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٩١- ١٩٢.
(٢) المرجع السابق: ص١٧٧.
(٣) الحرب الصليبية: جـ١ ص٣٩٧.
(٤) د/ تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج. ص٧٧.
(٥) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص١٦٩.

حلمُ الهجوم على عِرْقة[1] واختبارُ النار

لمّا استتبّ الأمر للصليبيين في أنطاكيا، أقدم بوهيمند على وضع يده على قلعتها بعد أنْ أخرج منها قوات ريموند دي سان جيل وجود فرى، وغيرهما من القادة الصليبيين، وعندئذ عاد النزاعُ يذر قرنَه بين القائدين الصليبيين: بوهيمند وريموند، كعادتهما[2]. وفي الثالث من أغسطس ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ. تدخل القديس أندرو- كالعادة- في النزاع القائم بشأن امتلاك أنطاكية من خلال بطرس بارثليميو وأحلامه، وانحاز إلى جانب ريموند السانت جيلي[3]. حيث وقف أندرو المبارك أمام الشاب الذي كشف عن الحربة، وقال له: انظر، إنّ الله قد أعطى الحربة للكونت، وفي الحقيقة، أنه قد حفظها له وحده عبر العصور، كما جعله قائدًا للصليبيين، على شرط أنْ يُكرّس نفسه لله[4].

فمع وجود الانقسام بين الصليبيين، وعدم وجود قائدٍ قومي بينهم، كان لا بدّ من وجود لجان تنظّم أمورهم، فكانت هناك لجنة تضمّ كبار السادة، تتولى شئون الحرب الصليبية معظم الوقت، بيدَ أنه لا أحد من هؤلاء الرجال الكبار كان واثقًا من قوّته، كما لم يكن أحدٌ منهم متأكدًا من ولاء أتباعه له. إذ كان في استطاعتهم الانصراف عنه والانضمام إلى غيره بسهولة، وكان أدهيمار دي مونتيل يسيطر على هذه اللجنة، وفي ليلة العاشر من يونيو ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ ، شاهد ستيفن الفلنسي Stephen of valence المسيح في المنام وأبلغه بأنه: لا يوجد سيد أعلى بينكم، وإنّما على الشعب الثقة في الأسقف أدهيمار أكثر من أي شخص آخر»[5] وهكذا كانت

(١) عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، وهي على سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة. الحموي: معجم البلدان. جـ ٤ ص ١٠٩.

(٢) برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق. ص١٤٩.

(٣) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٩٣.

(٤) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ص١٣٣.

(٥) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٦٢- ١٦٤.

هناك رؤيا تدعم موقف ريموند السانجيلي، وأخرى تدعم أدهيمار، وتضاربت إرادة الربّ بين القادة الصليبيين، ممّا يعطي شعورًا- بناء على هذه الرؤى- بأنّ الربّ نفسه لا يدري ماذا يفعل، وهذا أكبرُ دليل على أنّ هذه الرؤى والأحلام كانت من بنات أفكار أتْباع القادة الصليبيين، وربما يكونون هُمُ الذين أوحوا إليهم بترديد مثل هذه الأحلام.

وفي الأول من أغسطس ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ ، مات الأسقف أدهيمار[١] ممّا أضعف عزيمة الجند، وتنازع الأمراء حول امتلاك أنطاكية. وفي إحدى رؤى بطرس بارثليميو التي كانت ليلة الخامس من إبريل ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ. أمر المسيح بوجود نظام جديد للعدالة في المعسكر الصليبي مع وجود قضاة من سلطتهم حق مصادرة ممتلكات المذنبين، وإن كشفت هذه الرؤى عن شيء، فإنما تكشف عن مدى القلق الذي ساور الصليبيين العاديين بسبب غياب القانون، إذ بعد موت أدهيمار لجأ القادة ومعهم أتباعهم إلى عمليات السلب والنهب، وتبعهم عامة الصليبيين، حيث كانت الفوضى ثقيلةَ الوطأة على الفقراء بصفة خاصة، ممّن كانوا لا يتبعون قائدًا شهيرًا.[٢] غير أنّ أكثر الرؤى شهرة- بخلاف رؤى النزاع على حكم أنطاكيا- تلك الرؤيا التي شاهدها أنسيلم الريبمونتي Anselm of Ribemont أمّا بالليل أو وقت الظهيرة قبيل مقتله في ٢٥ فبراير ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ، وعلى وجه الإجمال فقد أبلغت الأرواح رسالتين- من خلال هذه الرؤيا-: الأولى هي أنّ الحربة كانت حقيقة، والثانية أنّ رفاق الصليبيين الذين ماتوا بسبب المرض أو على أيدي مَن أسَرَهم مَن المسلمين، أو في ساحة الوغى، ذهبوا على الفور إلى الفردوس لأنهم شهداء[٣].

ولمّا طالت المدّة، وتأخّر الزحف على بيت المقدس، بسبب هذه الحوادث، بدأ التململُ بين الصليبيين من أولئك الحجاج الذين كانوا لا يزالون يتشوقون للوصول إلى المدينة المقدسة،

(١) كان موت المندوب البابوي أدهيمار نتيجة لوباء تفشي في أنطاكيا لكثرة الجثث التي لم يتم مواراتها التراب. ريموندأجيل: تاريخ الفرنجة. ص١٥٩. حاشية رقم (٣).

(٢) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٦٤- ١٦٥.

(٣) المرجع السابق: ص٢١٢- ٢١٣.

هدفهم الأول، فواصل الصليبيون زحفهم إلى المدن الشامية، وكان منها مدينة (عرقة) المحصنة والتابعة لإمارة طرابلس.[١]

فقد أعلن بطرس بارثليميو أنّه في ٥ أبريل سنة ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ، ظهر له المسيح والقديس أندرو والقديس بطرس، وصرّحوا بأنّه لا بدّ من القيام بهجوم على عرقة، غير أنّ معظم الجيش ازداد تبرمًا من رؤى بارثليميو التي اعتبروها تدبيرًا سياسيًّا من قِبَل الكونت ريموند السانجيلي، إذ أنّ شطراً من فرنسي الشمال بقيادة قسيس روبرت النورماندي واسمه أرنولف روز، أعلنوا وقتذاك صراحة عدم اعتقادهم في حقيقة الحربة المقدسة، وأشاروا إلى أنّ أدهيمار أسقف لي بوى لم يقتنع بها[٢] مطلقًا[٣]. فقد كان الصليبيون أمام عرقة منقسمين في الرأي بشأن مواصلة حصار المدينة، أو الاندفاع صوب بيت المقدس، وكان ريموند السانجيلي رافضًا فكَّ الحصار عن المدينة، وليس من المدهش أنْ يرى بطرس بارثليميو رؤيا تعطي تأييدًا مقدسًا لوجهة نظر ريموند المذكور[٤].

وقد خصّص ريموندا جيل جزءًا كبيرًا من تاريخه ليسرد رؤيا بطرس بارثليميو، وفي حصار عرقة، يبدو أنّ رؤيا واحدة لم تكن تكفي، فروى ريموندا جيل رؤى آخرين غير بطرس بارثليميو. ربما ليزيد من حماس الفرنج في محاولتهم للاستيلاء على تلك المدينة الإسلامية الصغيرة، التي كلفت المقاومة التي أبداها أهلها، الصليبيين الكثير من الأرواح والعتاد، إلى جانب الوقت والجهد دون طائل[٥].

---

(١) برجاوي: الحروب الصليبية. ص١٥٤- ١٥٧.

(٢) لم يغفر بطرس بارثليميو مطلقًا لمندوب البابا أدهيمار ما أظهره من عدم الاعتقاد في رؤياه ولم يلبث أنِ انتقم لنفسه بعد يومين من وفاته، إذ أعلن أنّ القديس أندرو زاره مرة أخرى وظهر له في هذه المرة، وبصحبته أدهيمار، وصرح أدهيمار أنه نال العقاب بسبب عدم تصديقه، بأن أمضى في جهنم الساعات الواقعة بين وفاته وبين ظهوره في الرؤيا. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٦٠.

(٣) المرجع السابق: جـ١ ص٣٨٥.

(٤) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٨٦- ١٨٧.

(٥) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة. ص٢١٢. حاشية رقم (٢٠).

أخذ بطرس بارثليميو يروج قصة حلمه الجديد، ولكن هذه المرّة وجد الجميع أنّ ثقب هذه الكذبة متّسعٌ لا يمكن رتْقُه، فارتفعت الأصوات تكذب بطرس وتكذب قصة الحربة المقدسة، وطُلب منه إنْ كان صادقًا أنْ يدخل امتحانًا على الطريقة الجرمانية[1].

فقد أثير من جديد موضوعُ الحربة التي عثروا عليها في أنطاكية، وتساءلوا: أحقًّا هي الحربة التي فجّرت الدم والماء من جنب المسيح؟ أم أنّ الأمر كلّه مجرد خدعة؟ وتشكّك الناس في الخبر، بل وتبلبلتْ خواطر القادة فأكّد البعض أنها كانت نفس الأداة التي اخترقت جنبه، وهو مرفوعٌ على الصليب، وما كان كشفها إلّا أنّ العناية الإلهية قد أرادت أنْ تشدّ عزائم الناس، وقال آخرون بل هي برهانٌ صحيح على خبث الكونت، وأنّها حيلة احتالَ بها لخدمة مآربه. كما قالوا: إنّ المؤلف الحقيقي لهذه القصة التي صارت مثارَ جدلٍ إنما هو رجل اسمه «أرنولف»، وكان صديقًا لكونت نورماندي، وكان يحيا حياةً فاسقة شهوانية، ويجد اللذة في إثارة النزاع بين الناس[2].

ظلّت هذه المسألة موضعَ جدلٍ طويل بين الحجاج حتى انتهى الأمر أخيرًا بقيام بطرس (بارثليميو) الذي زعم أنّه قد أوحى إليه بخبر الحربة، وسأل القوم أنْ يوقدوا نارًا كبيرة، وقال لهم إنّه بعون الربّ سيبدد شكوك المشككين عن طريق التحكيم الفعلي للنار[3] وسيؤكد لهم- رغم ظنونهم- أنّ الوحي الإلهي هو الذي كشفَ عن هذه الحربة، عزاءً للناس وسلوى لهم، ومن ثمّ أوقدت نار عظيمة أثارت حرارتها خوفَ الواقفين حولها، وكان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد القيامة المجيد، وفي هذا اليوم اجتمع الناس قاطبة ليشهدوا التجربة الحية بشأن هذا الموضوع الهام، فتطوّع لدخول هذه التجربة الشديدة الخطورة الرجل المدعو «بطرس

(١) د/ تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج. ص٧٨ حاشية رقم (١).
(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية. جـ٢ ص٥٤- ٥٥.
(٣) جرى اختبار النار في يوم الجمعة الحزينة ٨ أبريل سنة ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٨٦.

بارثليميو»، وكان خوريا قليل الحظّ من التعليم، قد أجمع الناس على سذاجته وإخلاصه، وتقدّم حاملًا في يده حربة المسيح، واقتحم النار فاجتازها ولم يبدُ للناظرين أنْ قد مسّه ضرر، ولا حاق به أذى[١].

يقول ريموندا جيل واصفًا حال بطرس بارثليميو داخل النار[٢]: «ومشى داخلًا الكومة المشتعلة شجاعة، ودون أنْ يخيفه شيء، ومشى بتمهّل في وسطها، وأخيرًا ببركة الربّ خرج من اللهب، وحتى يومنا هذا يزعم بعضُ المراقبين أنهم رأوا هذه العلامة: وهي أنّ طائرًا طار فوق رأس بطرس قبل أنْ يخرج من قبر النيران».

غير أنّ المؤرخين الأوروبيين الآخرين يختلفون مع ريموندا جيل- الذي لم يكفّ عن نسج أكاذيبه حتى آخر لحظة في مصير الحربة المقدسة- في مصير بطرس بارثليميو بعد دخوله النار، يقول روجر أوف ويندوفر[٣]: «لكن بما أنه مات بعد ذلك بعدّة أيام، فإنّ المحنة لم تعطِ قناعة كاملة للحزب المعارض»، ويقول وليم الصوري عن ذلك أيضًا[٤]: «غير أنّ عمله هذا لم يفشلْ فحسب في إزالة الشكّ من عقول الناس، بل إنه أثار مشكلةً أكثر خطورة، إذ ما لبث بطرس هذا أنْ مات بعد أيّام قلائل، ممّا حدا بالبعض لأنْ يعلن أنّ تجربة النار هذه أدّت إلى هلاكه قبل أنْ يحين أجله، وأنه كان سبب دمار نفسه لمعاونته على التدليس»، وظلّ اثني عشر يومًا يقاسي آلامًا شديدة، ثمّ توفّي متأثرًا بجراحه، وترتّب على هذا الاختبار أنّ الحربة انتقص قدرها جميع الصليبيين ما عدا البروفنساليين، الذين أقروا أنّ بطرس اجتاز اللهب بسلام، دون أنْ يلحقه أذًى، غير أنه دفَعَه إلى النار مرّة أخرى، الجمهورُ الذي اشتد حماسه، وزاد حرصه على أنْ يلمس قميصه المقدس[٥]. ولا عجبَ في موقف البروفنساليين من اختبار النار هذا، فقد ذكر آنفًا بأنّ لهم أجندة خاصّة بالنسبة للحربة المقدسة عمومًا.

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية. جـ٢ ص٥٥.
(٢) تاريخ الفرنجة: ص٢٠٤- ٢٠٥.
(٣) ورود التاريخ: الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٧٢.
(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية. جـ٢ ص٥٦.
(٥) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٨٦.

رؤى وأحلامٌ سقوط بيت المقدس

لم تكنِ الرؤى والأحلام المقدسة الخاصّة بسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين وليدةَ اللحظات التي وصلت فيها جحافل الصليبيين عند أسوار المدينة المقدسة، بل ظهرت هذه الرؤى مبكرة جدًّا، ففضلًا عن الرؤى التي تمّ نسجها في أوروبا قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق، ظهرت العديدُ من الرؤى عندما كان الصليبيون محاصَرين في أنطاكيا.

إذْ بينما كان الصليبيون محاصَرين في أنطاكيا من قِبل المسلمين، اشتدّ الخطب وظهر جليًّا أنه لا فائدة إنْ لم تحصل مساعدة فوق العادة، لذلك حصلت جملةُ حوادث ظنّها كثيرون أنّها معجزة، ذكر المؤرخون أنّ قسيسًا لومبارديًّا قام في الوسط، وقال: أوحى إلي رؤيا أنه لا تنتهي السنة الثالثة من تلك الحروب إلّا بأخذ أورشليم[1]. وبعد أنْ هُزِمَ الجيش الإسلامي وتمّ فكّ الحصار عن أنطاكية، اشتدّ التعلق والتبرّم عند الحجاج وتاقت نفوسهم إلى أنْ يغادروا أنطاكية التي تأخروا في المقام بها زمنًا طويلًا، وعانوا فيها كثيرًا، وبتحريض من بطرس بارثليميو ورؤاه، قدّموا لسادتهم إنذارًا نهائيًّا[2].

وقد حاصر الصليبيون مدينةَ عرقة، ولكن دون فائدة كما ذكر آنفًا. وفي هذا الوقت تجلّى القديس أندرو لبطرس ديزيديروس، وقال له: «اذهبْ وتحدّث إلى الكونت، وقلْ له: لا تزعج نفسك أو الآخرين؛ لأنّه ما لم يتمّ الاستيلاء على القدس أولًا، فلن تنالوا أيّة مساعدة، ولا تضايق نفسك بشأن حصار عرقة الذي لم يتمّ، ولا تثقلْ على نفسك بأنّ هذه المدينة أو غيرها من المدن التي ستصلون إليها في الرحلة، لم يتمّ الاستيلاء عليها في الوقت الحاضر، لأنكم ستخوضون حربًا تستولون فيها على هذه المدينة وغيرها، وفضلًا عن ذلك، لا تزعج نفسك أو

---

(١) حيدر الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي. علق على حواشيه د/ مارون رعد- دار الجيل- بيروت ١٩٩٣م. جـ٢ ص٤١٦.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٣٦٧.

رجالك، ولكنْ وزّع باسم الربّ ما سوف يمنحه لك، وكنْ رفيقًا وصديقًا طيبًا للأتباع. فإذا فعلت هذا، فإنّ الربّ سوف يمنحك أورشليم والإسكندرية. ولكن إذا لم تفعل، فإنك لن تحصلَ على الأشياء التي وعدَ بها الرب، ولا تصلك رسالة منه، حتى يضعك في مأزقٍ ومحنة، لا تعرف إلى الهرب منها سبيلًا». وهكذا تقبّل الكونت كلمات القسيس: تقبّلها قولًا، ولكنه رفضها فعلًا؛ لأنّه حين جاءته ثروة كبيرة من ملك طرابلس لم يكن لديه أيّ استعداد لأن يعطي منها شيئًا لأحد، بل إنه كان يثقل على قومه بالضرب والإهانات[1].

كان الفصلُ الأخير في قصة الحملة الصليبية الأولى هو حصار القدس الذي استمر طوال خمسة أسابيع (٧ يونيو- ١٥ يوليو ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ)، وتصوّر الصليبيون أنّ الحصار سوف يكون عاديًّا، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنّ قواتهم لن تتمكّن من تنفيذ مهمّتها بسهولة، ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير في ملحمة الحملة الأولى أكثر من إشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة[2].

ففي الخامس من يونيو ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ، حدث خسوفٌ للقمر عند اقتراب الصليبيين من بيت المقدس، وتمّ تفسير تلك الأمور على أنها بشائر النصر المسيحي، وقيل آنذاك إنّه لو انعكست الآية وحدث كسوف للشمس بدلًا من خسوف القمر، لكان ذلك نذيرًا بهزيمة الصليبيين[3]، وبالطبع كان ذلك العصر هو العصرَ الذي كان الناس يهرعون فيه بحثًا عن آراء المنجّمين وتدوينها[4]. وفي أوائل يوليو ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ عندما كان موقف الصليبيين يتزايد

(١) د/ قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى. ص٢٥٨- ٢٥٩.

(٢) يوشع براور: عالم الصليبيين. ص٥٨.

(٣) ربما يكون هذا التفسير من قبل الصليبيين لظاهرة خسوف القمر، قد بنى على أساس أنّ القمر يمثل المسلمين، باعتبار أنّ المسلمين يعتمدون عليه في التقويم فهو رمز لهم، وأن الشمس تمثل الصليبيين لاعتمادهم عليها في التقويم فهي رمز لهم أيضًا.

(٤) جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى ص١٧٠.

حرجًا أثناء محاصرتهم لبيت المقدس، ظهر أدهيمار- أي شبحه- مرّة ثانية للصليبيين- الأولى عندما ظهر لبارثليميو كما ذكر آنفًا- وأبلغهم تعليمات بشأن التقرّب إلى الله عن طريق الصوم أو السير في موكب حُفاة الأقدام حول بيت المقدس، وتنبأ لهم بسقوط بيت المقدس في أيديهم بعد تسعة أيام(١).

وكانت هذه الكلماتُ بردًا وسلامًا على الأمراء وعلى الناس جميعًا، وصدرت الأوامر للكافة بأنّ القساوسة سوف يقودون في يوم الجمعة التالي المسيرة حول المدينة، وهُم يحملون الصلبان وذخائر القديسين ورفاتهم المقدسة، على حين يتبعهم الفرسان وكلّ الرجال الأقوياء حفاة الأقدام، تصاحبهم الطبول والبيارق والأعلام، والأسلحة(٢) وقد أولى الصليبيون تكريمًا خاصًّا لآثار القديسين في طوافهم التكفيري الذي سبق الهجومَ على القدس(٣). فقد كان الصليبون متعصبين متعطشين للدماء، والأسوأ من هذا أنّ بعضهم كان انتهازيًّا بحيث استغلوا الحروب المقدسة، لتحقيق مآربَ غير مقدسة(٤). وقد احتشد المسلمون على الأسوار، وأخذوا يهزئون بهم، غير أنّ الصليبيين وجدوا في هذه السخرية المجد والرفعة، وبعد أنْ أتمّوا طوافهم، صعدوا جبل الزيتون، وعلى الجبل أخذ يعظهم بطرس الناسك(٥)، وكان هناك ناسكٌ قد سكن في جبل الزيتون فأعطاهم أملًا ونشاطًا، بإخبارهم بأنهم سوف يستولون على القدس في ذلك اليوم فشجعت هذه الشارات جميعًا الجيش وجعلت العساكر متأكّدين من أنهم سوف ينالون النصر(٦).

---

(١) المرجع السابق: ص٢١٢.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى. ص٢٦٨.

(٣) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ص٣٦٦.

(٤) بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار المعارف- الطبعة الثانية ١٩٨٤م. ص١٣٧.

(٥) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ١ ص٤٠١.

(٦) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٨٠- ٨١.

ومع المحاولات الفاشلة لاقتحام أسوار المدينة المقدسة بدأ اليأس يتسرّب إلى نفوس الصليبيين الذين أثقلتهم فداحةُ الجهد الذي بذلوه، فتراخوا في عملهم ورأوا البرج- برج الحصار- يكاد يكون قد دمّر تمام التدمير بسبب ما ناله من القذف المستمر، كما تعالى الدخانُ من الآلات الأخرى... فرأى الصليبيون أنّ خير ما يفعلونه في هذه الظروف هو أنْ يسحبوا هذه الآلات إلى الوراء قليلًا على نية مواصلة القتال في الغد... على أنّه في وسط هذا اليأس الغامر المطلق جاءت النّجدة السماوية للمؤمنين فأسعفتهم بما يرتجون، إذ تراءى لهم على جبل الزيتون محاربٌ لم يره أحد أبدًا بعدئذ في هذا الموضع، وقد راح يلوح لهم بدرع يكاد بريقه يأخذ بالأبصار، ويشير به إلى العسكر أنْ يعودوا لمتابعة ما هم فيه من قتال. فلمّا رأى الدوق جودفرى هذا الشبحَ العجيب خفقت جوانحه سرورًا، وشرع في لحظته ينادي على الناس وكبار القوّاد بصوتٍ جهْوري: أنْ عودوا لما كنتم فيه. فعاد الناس جميعهم برحمة الربّ إلى ساحة القتال، وقد قويت عزائمهم ودبّت الحماسة فيهم من جديد دبيبًا، حتى أنّ مَن كانوا قد انسحبوا منذ قليل مثخنين بجراحهم، ومَن أعياهم الإرهاق عادوا بعزيمةٍ جبارة وحماسة طاغية[1].

قيل بأنّ أدهيمار أسقف لي بوى صاحبَ الذكرى الخالدة، والذي توفي في أنطاكية قد شوهد من قِبل عددٍ كبير من الناس في المدينة، لا بل أكثر من هذا لقد أكّد كثيرٌ من الناس مِن أعظمهم ثقة بأنّهم رأوه بأعينهم يتجوّل مع الأمراء ويقوم بزيارة الأماكن المقدسة، يضاف إلى هذا أنّ كثيرين آخرين مِن الذين ماتوا في سبيل المسيح أثناء الحج؛ قد ظهروا في المدينة أمام الكثيرين، وهُم يزورون بخشوع الأماكن المقدسة[2].

وشهد العديدُ من زوّار البقاع المقدسة كثيرين ممّن ماتوا وجرى عليهم قضاء الربّ الذي لا مفرّ منه، أقول شاهدهم الكثيرون في هذا الحج. وكما حدث للسيد من قيامه من بين الموتى،

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية جـ٢ ص١١٩- ١٢٠.
(٢) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٨٤.

كذلك نام مباركون كثيرون، ثمّ قاموا بالجسد وتجلّوا للكثيرين في المدينة المقدسة. وقد تعدّد ظهورُ هذه الآيات وكثير غيرها ممّا شابهها لشعب الربّ بفضل الرحمة الإلهية، وبدت كمعجزات أكثر منها عجائب، لذلك فقد عمّ الناس فرحٌ في الروح والفكر أنساهم ما كابدوه من الصعاب التي لا حصر لها، وعدّوا أنفسهم سعداء إذا أتيح لهم أنْ يشاهدوا هذا العطف الإلهي[١].

وبعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين نفذ ريموند السانجيلي بعض التعليمات التي وردت إليه من القديس أندرو عن طريق بطرس بارثليميو- قبل وفاته- وقام بتنفيذها بكلّ وقار وجهالة إذ أنها منافية للعقل، ومثيرة للضحك، فقد كانت تلك التعليمات[٢] تقضي بأنْ يعبر نهر الأردن على رمث (طوف) وهو مرتدٍ قميصًا قصيرًا وبنطلونًا قصيرًا breeches، وأن يجدّد تعميد نفسه بنفسه، ثمّ يحتفظ بتلك الملابس الداخلية مع الحربة[٣] المقدسة.

عندما أصبح الصليبيون مُدركين لعظمة انجازاتهم اعترفوا بأنّ التفسير الوحيد لنجاحهم، هو وجود قوّة مقدسة تدخّلت ماديًّا لمساعدتهم، وكان ظهور العلامات في السماء واكتشاف الآثار المقدسة، وظهور أرواح الموتى وتحركها في شكل جسدي، وتحدّثها لأشخاص لهم المقدرة والاستعداد على مشاهدة الرؤيا Visioneries أدلة على وجود هذه القوة المقدسة[٤].

إنّ الباحث المتأمّل لواقع تاريخ الحركة الصليبية يدرك من فوره أنها ذات طابع تعصبي عنصري ضدّ كلّ ما هو غير مسيحي كاثوليكي، ولذلك فلا عجب أنِ ارتبط بها طابعٌ دموي لا ينكر. وخلال ذلك تمّ الفتك بعشرات الآلاف من أعدائهم، وجاء ذلك وسط موجةٍ عارمة

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية. جـ٢ ص١٣٢.

(٢) كان هناك اهتمام شديد بأداء الطقوس الدينية بين القوات المتحاربة، وكان الصليبيون يهتمون اهتمامًا شديدًا بالتعاليم الدينية التي تحض على تحمل المسئولية، وكان رجال الدين يرنمون بهذه التعاليم في صلواتهم على مدى خمسة أيام متصلة، وشاع أنّ المسيح أبلغ القس ستيفن الفلنسي Stephen of valence بهذه التعاليم في رؤى عام ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ. جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٥٦.

(٣) المرجع السابق: ص١٨٠.

(٤) المرجع السابق: ص٢١٣.

من العداء والكراهية، والرغبة الجامحة في الفتك بكلّ مَن لا يدين بالمسيحية الكاثوليكية[1] فقد كان الصليبيون هُم الذين ارتكبوا أبشع المذابح بعد اقتحام بيت المقدس، ثمّ ذهبوا لكي يؤدوا صلاة الشكر في الضريح المقدس بوجوهٍ تنطق إرهاقًا، وأيادٍ تقطر دمًا. هذا التناقض في سلوكيات الصليبيين يوازيه تناقضٌ آخر في انتماءاتهم الاجتماعية وأفكارهم، فقد كانوا خليطًا غريبًا من المغامرين والأتقياء، من الحجاج واللصوص، من النبلاء والفلاحين، من المثاليين والهاربين من العدالة، من الباحثين عن الثروة والباحثين عن خلاص أرواحهم، كانوا رجالًا ونساء وأطفالًا وشيوخًا، من شتى الطبقات ومختلف المشارب تحركهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدوافع[2].

في غضون هذه الفترة كادتْ تختفي أخبار المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة، وبدأت العواملُ الدنيوية تفرض نفسها، وطالما كانت الحملة تسير بسهولة وتحرزُ انتصاراتها في يسر وسهولة، كانت تختفي هذه الأخبار التي كانت من أهمّ ملامح الأيديولوجية الصليبية، فإذا جابهت أفراد الحملة مشكلةٌ ما، أو تهددهم المخاطر؛ أطلّت عليهم من جديد أنباء الرؤى الإعجازية والأحلام المقدسة، والظواهر الخارقة والمعجزات تذكّرهم بالأيديولوجية التي نسوها في خضم صراعاتهم ومنافساتهم وضغائنهم التي ميزت كثيرًا من الأحداث التي جرت على الطريق إلى القدس[3].

(١) د/ محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية. السياسة- المياه- العقيدة. ص٤٢.
(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص٧٠- ٧١.
(٣) المرجع السابق: ص١٤٨.

رؤى وأحلامُ الذخائر المقدسة[١]

لم يكنِ الحجُّ في المسيحية فريضة مهمّة، ولم يصل إلى أهمية الحج إلى المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة، بيدَ أنّ الحج المسيحي بعد فترة من الوقت أصبح جزءًا مكملًا للممارسة المسيحية[٢].

وبدأت مواكب الشكر ومواكب التوبة في الظهور في الكنيسة بعد عام ٣١٣م، لتصبح جزءًا من العبادة، وانتشرت أيضًا عادة زيارة الأماكن المقدسة، وكانت في بداية الأمر لزيارة الأراضي المقدسة في فلسطين، ثمّ امتدّت لتشمل زيارة قبور القديسين المشهورة[٣].

فكانت ممارسةُ الحجّ على نطاق واسع تعبيرًا مهمًّا عن حالة التجديد والإحياء الكنسي والروحي الإصلاحي الذي قامت به الأديرة الكلونية[٤]. وكان الحج بمثابة عملٍ تكفيري يعقب حالةَ شعور بالندم والأسف لارتكاب الذنوب والآثام، وأصبح الحجّ ممارسةً يحظى صاحبها بالاحترام والتقدير الاجتماعي ووسيلة لإظهار التدين وتوبة للخاطئين[٥].

---

(١) الذخائر المقدسة Holy relic: هي عظام القديسين، أو أي شيء آخر قد خلفوه وراءهم، أو أي هدف قد حققوه وأثر في حركة التاريخ، كذلك ما ألفوه من كتب وأسسوه من مدارس.
Gina Burke: The justification for relic thefts. P 4

(٢) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص٢٣٣.

(٣) ايرل كيرنز: المسيحية عبر العصور. ترجمة/ عاطف سامي برنابا- دار نوبار- القاهرة ١٩٩٢م. ص١٨٨-١٨٩.

(٤) دير كلوني: في سنة ٩١٠م/ ٢٩٨هـ ، أسس وليم الأول كونت أقطانيا دير كلوني بدلًا من الأديرة البندكتية- نسبة إلي القديس بندكت مؤسس الرهبنة في أوروبا- التي كانت قد وصلت إلي حال من الترهل والتردي، وبنهاية القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري كانت الأديرة الكلونية قد دخلت في علاقات قوية مع البابوية، وقد اعتبر الكلونيون أنفسهم حماة الضمير المسيحي، كما قاموا بتنظيم رحلات الفرسان الفرنجة عبر جبال البرانس للقتال ضدّ المسلمين في الأندلس، وأنشئوا عدة تنظيمات وبيوت ضيافة لخدمة حركة الحج إلي فلسطين. د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص ٥٠ حاشية رقم (٣٧).

(٥) يوشع براور: الاستيطان الصليبي. ص١٧.

كانت تقْوى المؤمنين في العصر الوسيط تحتاج إلى دلائلَ محسوسة يمكن أنْ تستند إليها، ومِن بين هذه الدلائل، تعتبر الآثار المقدسة موضع اشتهاءٍ عظيم من جانب الحجّاج الذين يطلبون شفاعة الشهداء والقديسين عندما يصلون أمام قبورهم أو آثارهم[١]. ومن خلال هذه الرفات- أو الآثار- كان يتمّ التحكم في عقول الناس في أوروبا، كذلك كانت تستخدم للحماية ضدّ أي هجوم من الأعداء، وللحفاظ على القانون والنظام والسلام داخل المجتمع، كما كانت تؤخذ عليها العهود والمواثيق، وكانوا يمسحون بها على أسلحتهم ويعانقونها ويقبلونها[٢].

فقد انتشر استخدامُ الصور Pictures وهي نوع من الذخائر والتماثيل في العبادة بسرعة، وذلك بسبب زيادة عدد المنضمين إلى الكنيسة من البربر الذين لم ينالوا قدرًا كافيًا من التعليم والتوجيه. وقد قامت الصور والتماثيل بتجسيد بعض الحقائق غير المرئية عن الله بالنسبة لأولئك العابدين، كما كان لها دور في تزيين وتجميل مباني الكنائس[٣]. وكان فرسانُ الغرب الأوروبي على الجملة، لا يفهمون من الدين سوى أنه حيازة الذخائر المقدسة، أو الهبات التي كانوا يغدقونها بسخاء على الأديرة والكنائس تكفيرًا عن ذنوبهم، إذْ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة[٤].

وبما أنّ الروح القُدس قد احتمت بأحد المقابر الأرضية- حسب المعتقد المسيحي- فقد استلهم الرجلُ البسيط في أوروبا العصور الوسطى فكرة القداسة التي تحملها رفات الشهداء من التجربة السابقة للروح القدس، ففي الغرب الأوروبي كان الاعتقاد في معجزات وخوارق الذخائر المقدسة إحدى الممارسات الدينية الشائعة هناك تقريبًا، بيد أنّ هذه المعجزات والخوارق كانت في الغالب ذات سمة أسطورية بعيدة عن التهذيب. وكانت الكنائس والأديرة تتوق إلى

---

(١) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ص٣٦٥.

(2) Gina Burke: The justification for relic the fts. P.17.

(٣) ايرل كرنز: المسيحية عبر العصور. ص١٨٨.

(٤) د/ قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية. ندوة التاريخ الإسلامي والوسط. مجلد ٢. ص٢١٢- ٢١٣.

إضفاء الصفة الشرعية على الذخائر المقدسة الموجودة لديها لكي تعضد قداستها ومكانتها بين قريناتها من الذخائر المقدسة الأخرى[١].

وقد لعبت تجارة «الذخائر المقدسة» دورًا هامًّا في إثارة الاهتمام بالأرض المقدسة في الغرب الأوروبي، وكان الحاج الذي يجلب معه شيئًا من هذه الذخائر المقدسة، يكسب مجدًا ومكانة في عيون أهل بلده. وبطبيعة الحال كانت هناك مواد كثيرة مزيفة في تلك التجارة التي راجت في الغرب الأوربي برواج الحج إلى فلسطين، وقد نسجت قصص خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة، مما زاد في تأجج الجوّ النفسي المشبع بالأفكار الألفية والأخروية[٢]. ومن أهمّ قطع الذخائر المقدسة التي أعراها الصليبيون اهتمامًا ما يعرف بصليب الصلبوت[٣] أو الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح حسب الاعتقاد المسيحي.

مع أنّ القدس لا تمتلك الصليب الحقيقي الذي جرى نقله إلى القسطنطينية في عام ٦٣٥م/ ١٤هـ، إنما تحتفظ فيما تواتر من القول على قطعة منه، موجودة في كنيسة القبر المقدس. وبعد اختفائها قبل الحملة الصليبية الأولى يعاد اكتشافها في ٥ أغسطس ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ، من جانب البطريرك أرنولف الشوكي- بطريرك بيت المقدس- على مقربةٍ من القبر المقدس[٤](*)، في ظروف مماثلة تمامًا لاكتشاف الحربة المقدسة في أنطاكية، وجرى الاحتفاظ بهذه القطعة في كنيسة القبر المقدس خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وبما أنهم كانوا يحملونها

(١) يوشع براور: الاستيطان الصليبي. ص٢١٩.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص٢٢.

(٣) الصليب: هو الذي يتخذه النصارى على ذلك الشكل المعروف ولعل كلمه صليب، بمعني الرمز الأكبر عند النصارى قد أخذت من الآرامية حيث ترد بهذه الصيغة نفسها، وهي لم ترد في القرآن الكريم. نخبة من العلماء: دائرة المعارف الإسلامية- دار المعرفة- بيروت- لم تذكر سنة الطبع- مادة صليب. جـ١٤. ص٣٢١- ٣٢٢.

(٤) وجد هذا الصليب مدفونًا في ردهة Atrium كنيسة. جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى. ص١٨٠- ١٨١.

أثناء المعارك، فقد ضاعت خلال معركة حطين سنة ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ[١]. يقول ابن الأثير عن ذلك[٢]: «أخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون أنّ فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك». لكن يمكن القول بأنّه لا يوجد ما يعرف بالصليب الحقيقي من الأساس، فبغضّ النظر عن كون اكتشافه مماثلًا لقصة الحربة المقدسة المختلقة، فإنّ الشكل الذي قتل عليه المسيح- حسبما يعتقد المسيحيون- مازال محلّ خلاف بينهم حتى الآن. يقول أحدُ كتّابهم المتخصصين في اللاهوت، الأب صبحي اليسوعي[٣]: «نحن نعلم بأن المسيح تسمّر، لكننا نجهل هل كان صليبه مجرّد تاء يونانية، أم هل كانت القائمة تمتد عموديًّا فوق العارضة الأفقية»، فإذا كان المسيحيون لا يعرفون الشكل الذي مات عليه مسيحُهم، فكيف بهم يعرفون كوْن الخشبة المعثور عليها من الصليب؟ فإنّ فعل «الصلب» معروف بأنه وقع على شبيه السيد المسيح عليه السلام حسب الاعتقاد الإسلامي، وعلى المسيح ذاته حسب الاعتقاد المسيحي، لكن ليس بالضرورة أنّ فعل «الصلب» قد حدث على شكل «الصليب» المعروف الآن، ويبدو أنّ الرؤى والأحلام الزائفة قد قامت بدورها كالعادة في اللعب بمشاعر الأوروبيين الدينية، خاصّة في أهمّ الذخائر قداسة عند المسيحيين قاطبة وهو صليب الصلبوت، والذي يمجّده المسيحيون أكثر من تمجيدهم للسيد المسيح ذاته.

(١) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ص٣٦٦.
(٢) الكامل في التاريخ: جـ١١ ص٥٣٦.
(٣) معجم الإيمان المسيحي: ص٣٠٠.

رؤيا النارِ في القبر المقدس [1]

يقصد بالقبر المقدّس، القبرُ الذي دفن فيه المسيح- حسب المعتقد المسيحي- بعد الصلب، ثمّ قام بعد اليوم الثالث من بين الأموات[2] وقد بنيت على هذا الضريح ما يُعرف بكنيسة القيامة في القدس، وقد اشتهر في عصر الحروب الصليبية، خاصّة في عهد الوجود الصليبي في القدس، رؤيا نار مقدسة تنزل من السماء على مصباح في أعلى الضريح المقدس. وذلك أمام مرأى الجميع. وقد تناقل خبر هذه النار المقدسة بعض المصادر الأوروبية، على أساس أنها من الأمور الإعجازية الخاصة بالضريح المقدس.

يقول الرحالة بورشارد[3]: «ولا يوجد ضوء في الداخل- أي في الضريح المقدس- بسبب عدم وجود نافذة تجلب الضوء إليه، ولكنْ تمّ تعليق تسعة أسرجة فوق قبر السيد المسيح»، وكان مِن المتّبع في كنيسة الضريح المقدس، وفي جميع كنائس المدينة- القدس- وضع الأضواء الأرضية وانتظار قدوم ضوء من السماء عند فجر عشية عيد القيامة[4]. فقد كان حاملو الصليب المقدس يطوفون به حول القبر المقدس من ستة إلى سبعة أشواط، وكان يصاحب هذا الطواف

---

(١) جاء في إنجيل متى بأنه بعدما صلب يسوع: حل المساء، وجاء رجل غني من بلدة الرامة اسمه يوسف، وكان أيضًا تلميذًا ليسوع، فتقدم إلى بيلاطس يطلب جثمان يسوع، فأمر بيلاطس أنْ يعطي له، فأخذ يوسف الجثمان، وكفنه بكتان نقي، ودفنه في قبره الجديد الذي كان قد حفره في الصخر، ودحرج حجرًا كبيرًا على باب القبر، ثمّ ذهب «انجيل متى ٢٧/ ٥٧- ٦٠.

(٢) وذلك وفقًا لما جاء في الإنجيل السابق من قول ملاك الرب لمريم المجدلية ومريم الأخرى: اذهبا بسرعة وأخبرا تلاميذه أنه قد قام من بين الأموات «انجيل متى ٢٨/ ٧.

(٣) وصف الأرض المقدسة: ترجمة د/ سعيد البيشاوى- دار الشروق- عمان- الأردن- الطبعة الأولى ١٩٩٥م. ص١٣٩.

(٤) ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين. ترجمة د/ سعيد البيشاوي- دار الشروق- عمان- الأردن- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م. ص٦٨- ٦٩.

تعاظم تدريجي لأصوات المصلين وابتهالاتهم وأدعيتهم الدينية، وفي نهاية هذا الاحتفال، كان يرى ضوءٌ إعجازي يتوهج وينبثق من إحدى اللمبات التي تعلو القبر المقدس[١].

ومِن أكثر المصادر التاريخية ذكرًا لقصة النار المقدسة التي تهبط على الضريح المقدس، ما كتبه الرحالة الروسي دانيال الراهب الذي أفرد لهذا الموضوع عنوانًا في كتابه سمّاه «النور المقدس وكيف يهبط على الضريح المقدس The holy light ، how it descends upon the holy sepulcher يقول في مقدّمته:[٢] «أقدّم لكم الوصف التالي للنور المقدس، الذي يهبط على الضريح المقدّس، حيث تعطف الربّ علي أنا عبده الشرير وغير الجدير برؤية ذلك. وفي الحقيقة فقد رأيت بعيني الخاطئتين كيف يهبط النور المقدس على ضريح سيدنا المسيح. ويروى كثيرٌ من الحجاج بشكل غير صحيح عن هبوط ذلك النور المقدس. ويقول بعضهم بأنّ الروح الطاهرة تهبط على الضريح المقدس على هيئة حمامة، ويقول بعضهم الآخر بأنّ برقًا من السماء يضيء المصابيح التي فوق ضريح المسيح. وهذا كلّه غير صحيح، حيث أنه لا ترى حمامة ولا برق في تلك اللحظة، ولكنّ رحمة الله تنزل من السماء بشكلٍ غير مرئي، وتضيء مصابيح ضريح السيد المسيح». ثمّ يصف دانيال الراهب طريقةَ الإعداد لهذا الحدث في الضريح المقدس فيقول:[٣] «سوف أصفُ لكم الحقيقة كاملة كما رأيتها، في يوم الجمعة المقدس وبعد صلاة المساء، ينظفون الضريح المقدس ويغسلون جميع المصابيح هناك، ويملئون هذه المصابيح بالزيت النقي الخالي من الماء، وبعد وضع الفتائل تترك المصابيحُ غيرَ مضاءة، ثمّ يُحكمون السداد على الضريح في الساعة الثانية من الليل، وفي نفس الوقت يقومون بإطفاء جميع المصابيح والشموع في جميع كنائس القدس».

---

(١) يوشع براور: الاستيطان الصليبي. ص٢١٥- ٢١٦.

(٢) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة ١١٠٦- ١١٠٧م. ترجمة د/ سعيد البيشاوي- دار الشروق- عمان- الطبعة الأولى ١٩٩٢م. ص١٣٠.

(٣) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة: ص ١٣٠.

وتحدّث دانيال الراهب- أيضًا- عن جموع الصليبيين التي كانت تحتشد لرؤية هذه النار المقدسة، فيقول عن ذلك[1]: «ويملأ الحشد من الناس الفضاء حول الكنيسة، وحول مكان الصلب، والجمهور المحتشد فظيع، والاهتياج شديد جدًّا، لدرجة أنّ بعض الأشخاص يختنقون من كثافة الجمهور المحتشد وفي أيديهم المشاعل غير المضاءة، ينتظرون فتح أبواب الكنيسة، ويمتلئ كلّ مكان بحشدٍ كبير من الناس. ويصيح جميعُ الناس داخل الكنيسة وخارجها بدون توقف، يصيحون قائلين: «كيري اليسون Kyrie Eleison ، ارحمنا أيها الربّ». وتكون هذه الصيحة مرتفعة جدًّا، لدرجة أنّ المكان يرتجف ويهتزّ منها، وتنهمر سيول من الدموع من قبل المؤمنين؛ وحتى الشخص الذي يملك قلبًا من حجر لا يستطيع الامتناع عن البكاء، وكلّ شخص في هذا المكان يبحث في أعماق نفسه وروحه، ويفكر بذنوبه ومعاصيه، ويقول سرًّا لنفسه: «هل ستمنع ذنوبي هبوطَ النور المقدس؟ ويبقى المؤمنون يبكون بقلبٍ ثقيل؛ حتى الأمير بلدوين[2] نفسه يبدو منكسر الفؤاد ومتواضعًا بشكل كبير، وينهمر سيلٌ من الدموع من عينيه، وتقف حاشيته حوله في تفكّر وتأمّل».

عندئذ كان حاملُ الصليب المقدس يدخل المِهْجَع بتوقير وارتجاف، ويضع شمعةً على النار المقدّسة المعجزة العجيبة، وعندئذ كانت توقد آلافُ الشموع من تلك الشمعة الأصلية التي اتّقدت من النار المقدسة العجيبة، وكان هذا الاحتفال أكثرَ تأثيرًا من أي احتفال آخر في المعتقد الشعبي التقليدي للسكان الصليبي، وأيضًا للحجاج... بيدَ أنّ هذا الاحتيال والخداع الزائف باسم الدين لم يستمرّ بشكل غير محدّد؛ إذ كانت هذه «المعجزة» تحدثُ فقط طوال فترة الوجود

(١) المصدر السابق: ص١٣٢.

(٢) يقصد دانيال الراهب بالأمير بلدوين، الملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ففي عشية عيد الميلاد من عام ١١٠٠م/ ٤٩٤هـ جرى حفل تكريس بلدوين في بيت لحم بصورة رسمية، وتوّج ملكًا على مملكة بيت المقدس، بيد البطريرك دامبير، وكان حينئذ في سن الأربعين. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص١٨٩.

الصليبي خلال المملكة الصليبية في بيت المقدس أي حتى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ. وعندما استرد المسلمون مدينة القدس في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ ، بات من العسير الدعوة لمثل هذا الاحتفال. وفي عام ١٢٣٨م/ ٦٣٦هـ. أصدر البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧- ١٢٤١م/ ٦٢٥- ٦٣٩هـ) مرسومًا بابويًّا يضع بموجبه نهاية للطقوس والشعائر اللاتينية[١].

غيْر أنّ هناك من المصادر الأوروبية مَن يذكر بأن عملية النار المقدسة كانت تتمّ بعد تحرير بيت المقدس، وبالتحديد في عهد صلاح الدين الأيوبي يقول المؤرّخ المجهول عن ذلك[٢]: «لمّا جاء مساء عيد الفصح[٣] في الرابع من أبريل سنة ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ. مضى صلاح الدين إلى ضريح السيد الموقر في القدس عساه يكتشفُ حقيقةَ النار السماوية التي تهبط من عل بأمر رباني في مثل هذا اليوم من كلّ عام فتشعل مصباحًا هناك... وبينما هُم كذلك إذا بالنار المقدسة تنزل فجأةً أمام أنظار الجميع وتشعل المصباح الذي سرعان ما أخذ يشع الضوء فينعكس على كلّ ما حوله. وعمّت الفرحة صدور المسيحيين، أمّا المسلمون فقد أخذهم العجب، وصعقوا ممّا يرونه من معجزة لم تخفَ على أحد، وأراد صلاح الدين أنْ يتبيّن حقيقة الأمر، فأمر بإطفاءِ المصباح الذي اشتعلَ بأمرٍ إلهي، فأطفئ فعاد للاشتعال مرّة ثانية بقوّة علوية، ثمّ جرى ذلك مرّة ثالثة».

لكنْ باستطلاع المصادر التاريخية الإسلامية، لا نجد أيّ ذكرٍ للرواية السابقة، أو لأي شيء عن النار المقدسة لا من قريب أو بعيد، وباستطلاع المصادر الأوروبية الأخرى، والتي عاصرت الوجود الصليبي في بيت المقدس لا نجد بها أيّ ذكرٍ لهذه النار المقدسة مطلقًا. يقول الحاج سايولف[٤]: «إنّ كنيسة الضريح المقدّسة التي تدعى كنيسة الشهيد هي الموضع الأول الذي

(١) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص٢١٥- ٢١٦.

(٢) الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م. جـ٢ ص١٥٠.

(٣) عيد الفصح: هو عيد قيامة المسيح- حسب الاعتقاد المسيحي- اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص٣٥٥.

(٤) وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢- ١١٠٣م. ترجمة د/ سعيد البيشاوي- دار الشروق- عمان- الطبعة الأولى ١٩٩٧م. ص٢٤.

تمت زيارته، ليس فحسب بسبب اتجاه الشوارع، بل لأنّها أكثر شهرة من غيرها من الكنائس الأخرى»، ولم يتحدّث عن النار المقدسة أو غير المقدسة في رحلته.

وذلك مع العلم بأنّ رحلة الحاج سايولف تحتلّ مكانة خاصة بين الرحلات الأوروبية إلى الأراضي المقدسة في فلسطين لعدّة اعتبارات، منها: كوْن زيارة الرحالة لفلسطين جاءت في بداية الاستقرار الفرنجي في الأرض المقدسة والاستيلاء على بيت المقدس، وقد ذكر الرحالة أنه وصل مدينة يافا في أكتوبر سنة ١١٠٢م/ ٤٩٦هـ، وبناءً على ذلك يكون قد مضى على استقرار الفرنجة في فلسطين نحو ثلاث سنوات وثمانية أشهر(١).

كما أنّ المصادر الأوروبية الأخرى المتأخّرة عن الحاج سايولف ودانيال الراهب، لم تتحدّث عن النار المقدسة مطلقًا، مثل الرحالة الألماني يوحنا فورزبورغ الذي كان قسيسًا في كنيسة فورزبورغ- إحدى المدن الألمانية الواقعة على نهر المين شمال بافاريا- والذي دوّن رحلته بعد عام ١٢٠٠م/ ٥٩٧هـ. وزار كنيسة القبر المقدس، قبل استعادتها من قبل المسلمين(٢).

فمِن المُلفت للنظر أنّ يوحنا فورزبورغ على الرغم من كونه رجل دين، وكان مِن الأوْلى به أنْ يذكر مثل هذه الأشياء، لم يورد أي ملاحظة عن النار المقدّسة، وكلّ ما ذكره قولُه(٣): «وفي النهاية يوجد سورٌ مستمرّ مزخرف بأشكال مرسومة لمختلف القديسين بمقياس كبير، ومضاء بمصابيح عديدة».

على الرّغم من أنّ دانيال الراهب يعدّ من أكثر الذين تحدثوا عن النار المقدّسة في الضريح المقدس، إلّا أنه بعد أنْ ذكرها، يبدو أنه أحسّ بأنّ مَن سيقرأ خبرَ النار المقدسة في كتابه لن يصدقها، لذلك نجده بعد أنْ أورد ذكرها يُكثر من الحَلف والأيْمان على صدقها، يقول عن

(١) سايولف: وصف رحلة الحاج سايولف. ص٥. مقدمة الترجمة العربية.
(٢) يوحنا فورزبورغ: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين. ترجمة د/ سعيد البيشاوي. دار الشروق. عمان- الأردن- الطبعة الأولى ١٩٩٧م. ص٢١- ٢٢. الترجمة العربية.
(٣) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين: ص٦٧- ٦٩.

هذا[1]: «وكلّ مَن لم يشارك في تلك السعادة السماوية في ذلك اليوم لن يصدّق بيانَ ما أسجّله هنا وما رأيته في ذلك المكان، إنّ من الحكمة تصديق الرجال الذين وضعوا ثقتهم في حقيقة هذه الرواية. إنّ الشخص الذي يؤمن بالقليل سوف يؤمنُ بالكثير، ولكن بالنسبة للشرير فإنّ الحقيقة والكذب سيان، إنّ الله وضريحَ المسيح المقدس يشهدان على صحة روايتي، وعلى صدق شخصي المتواضع، وكذلك رفقائي من روسيا». بل إنّ دانيال الراهب في موضع آخر يتوسّل إلى كلّ ما يقرأ خبر النار المقدسة في كتابه أنْ يصدقها ولا يحتقرها. يقول عن ذلك[2]: «إخواني وأسيادي، لا تلوموا جهلي وبساطتي، ومن أجل الضريح المقدّس لا تحتقروا هذه الرواية».

هذا ويمكنُ إرجاع السبب في كثرة حديث دانيال الراهب عن النار المقدسة إلى تاريخ انتشار الديانة المسيحية في روسيا نفسها، ففيما بين سنة ٩٤٥م/ ٣٣٤هـ، وسنة ٩٦٤م/ ٣٥٣هـ، حكمت مدينة كييف الأميرة أولجا التي تولت الحكم بعد وفاة زوجها إيجور، وامتاز حكم الأميرة بالعدل والمساواة، ولما انجذبت للتعاليم المسيحية ذهبت بنفسها إلى القسطنطينية وتعمدت بيد البطريرك، وعند عودتها إلى بلادها واجهت مقاومة من أمراء المملكة، وتولى الأمير فيلاديمير- حفيد الأميرة أولجا- الحكم سنة ٩٨٠م/ ٣٧٠هـ في كييف، وقرّر أنْ يتعمّد حسب الطقس البيزنطي، وتمّت مَعْمودية الأمير فيلاديمير وشعب كييف سنة ٩٨٨م/ ٣٧٨هـ وهو التاريخ الرسمي لتعميد روسيا، واستمرّ حكم الأمير فيلاديمير حتى سنة ١٠١٥م/ ٤٠٦هـ حيث امتدّ الإيمان المسيحي من كييف إلى كلّ موسكو[3].

فقد أكثر دانيال الراهب من ذكر مثلِ هذه الرؤى الإعجازية وبالغ في وصفها؛ لأنّه كان من رجال الدين، وكان بنو جلدته من الروس حديثي عهد بالمسيحية التي لم يمرّ على انتشارها وعلى تاريخ رحلته للأراضي المقدسة أكثر من قرنٍ من الزمان، فكان لزامًا عليه- كرجل دين-

(١) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب: ص١٣٤- ١٣٥.
(٢) المصدر السابق: ص١٣٨.
(٣) أثناسيوس: الكنائس الشرقية وأوطانها- دار نوبار- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٥م. جـ٤ ص٢١٠.

أنْ يكثر من هذه الرؤى ويبالغ في حقيقتها، كي يعمل على تثبيت عقيدتهم، وزيادة الإيمان المسيحي في صدورهم.

وعلى الرغم من أنّ الرحالة ثيودريش قد تحدّث عن النار المقدسة، وأكّد على حقيقة وقوعها، كما ذكر آنفًا، إلّا أنه ذكر رواية أخرى تنسف روايته السابقة من الأساس، يقول في هذه الرواية[1]: «وتظهر النار عادةً في ساعة معينة وأماكن معينة، إذ أنها تظهر أحيانًا في الساعة الأولى، وأحيانً في الساعة الثالثة، أو السادسة أو التاسعة، أو حتى ساعة متأخّرة في نهاية اليوم، وعلاوة على ذلك، فإنها تأتي أحيانًا في الضريح نفسه، وأحيانًا في معبد السيد- قبة الصخرة- وأحيانًا في كنيسة يوحنا».

وإذا كانت رؤيا النار المقدسة تتمّ في الضريح المقدس، ويقام لها الاحتفالات الكبرى، باعتبارها معجزةً إلهية؛ فإنه يمكن القول بأن هذه النار المقدسة كانت مجرّد لعبة من ألعاب رجال الكنيسة اللاتين، وهذا ما يستفاد من رواية ثيودريش السالفة الذكر، والتي تفيد بأنّ النار المقدسة لم تكن مختصة بالضريح المقدّس فقط، بل كانت تتمّ في إحدى أماكن ثلاث، كأنّ رجال الكنيسة إذا أعجزهم فعلُ هذه اللعبة المقدسة في الضريح المقدس فعلوها في المكانين الآخرين، وكانت الجماهير الصليبية الساذجة تصدق كلّ ما يقال لها كعادتها.

كان بلدوين الأوّل يأمُل في إعادة المسيحيين المحليين مرة أخرى إلى كنائسهم وأديرتهم في أورشليم. وجاءته فرصته غير المتوقعة عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ، ففي الليلة السابقة لعيد القيامة ترقّبت الحشود، كما كان معهودًا، معجزة النارِ المقدسة، غير أنّ شيئًا لم يحدث ولم تظهر النار الإلهية! ومن المفترض أنّ اليونانيين كانوا قد اصطحبوا معهم سرّ تلك النار، إذ لم يكونوا على استعداد للإفشاء به للاتينيين، وبدا عدمُ ظهور النار للحشود أمرًا سيئًا، وبدأ التساؤل عمّا إذا كان الفرنجة قد أغضبوا الله بشكلٍ ما، وفي النهاية اقترح ديمبرت- بطريرك بيت المقدس-

(١) وصف الأماكن المقدسة في فلسطين: ص٦٨- ٦٩.

أنْ يتبعه اللاتينيون إلى معبد الربّ؛ حيث كان الإله قد استجاب لدعوات سليمان. كما دعا المسيحيون المحليون للصّلاة هناك. وفي الصباح تمّ الإعلان عن ظهور النار في المصباحين المجاورين للمقبرة. وبدت رسالة السماء واضحة[1]، أي أنّ سرّ النار المقدسة كان من احتراف رجال الدين اليونانيين- البيزنطيين-، ولعلّ أكبرَ دليل على احترافهم مثل هذه الألعاب التي يتلاعبون بها بعقول البسطاء والسّذج من بني جلدتهم؛ ما ذكره أحد مؤرخي النصارى أنفسهم وهو المكين بن العميد، الذي يقول عن لعبة مماثلة للعبة النار المقدسة هذه[2]: «أمر ملك الروم توفيل بن ميخائيل[3](*) بأن يمحوا الصور من الكنائس، وأن لا يبقى في كنيسة صورة البتة، وسببُه أنه بلغه أنّ في بعض الكنائس التي على اسم مريم يظهر في صورتها في يوم عيدها لبنٌ يتدفّق من ثديها، فكشف عن القضية فوجد القائم- أي رجل الدين القائم على الكنيسة- قد تصنّع في هذا؛ لأنه كان يكسب من ذلك مالًا جزيلًا من الحجّاج إلى الكنيسة، لاسيّما من النسوان، فضرب عنق القائم وأبطل الصور»، ولو تمّ التحقيق الدقيق في أمر النار المقدسة التي كانت تنزل على الضريح المقدس، من قِبل أحد الصليبيين الباحثين عن الحقيقة- كما فعل ملك الروم- لثبت لهم أنّها مِن ألاعيب رجال الكنيسة.

(١) كارين أرمسترنج: القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث. ترجمة د/ فاطمة نصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م. ص٤٦٠.

(٢) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين من صاحب الشريعة أبى القاسم محمد ﷺ إلى الدولة الأتابكية. المعروف بالمجموع المبارك. ليدن. هولندا ١٦٤٥م. ص١٥٢.

(٣)(*) توفيل بن ميخائيل: ويعرف أيضًا باسم ثيوفيلوس بن ميخائيل الثاني (٨٢٩- ٨٤٢م/ ٢١٤- ٢٢٨هـ) كان ثيوفيلوس آخر الأباطرة اللا أيقونيين- أي الرافضين لعبادة الصور في المسيحية- وآخر من جب الاضطهاد الواقع على المتمسكين بتوقيرها، وكانت وفاته في يناير ٨٤٢م/ ٢٢٨هـ. أ. دونالد نيكول: معجم التراجم البيزنطية. ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣م. ص ١٠١- ١٠٢.

الرؤى والأحلامُ في بداية الاستيطانِ الصليبي في الشرق

أسّست الحملةُ الصليبية الأولى وجودًا مسيحيًّا لاتينيًّا على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط استمرّ نحو مائتي سنة، وكانت الحملةُ تتكوّن من فيالق جاءت من مناطق كثيرة في أوروبا، وعلى الرغم من أصول الصليبيين المختلفة فإنّ الصليبيين الذين استوطنوا في شرق البحر المتوسط كانوا يعرفون باسم «الفرنج» لدى معاصريهم من المسلمين واللاتين في الشرق[1]. وقد شاءت الظروف أنْ تكون مدينةُ طرابلس آخرَ مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين، وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكيا وبيت المقدس، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخرَ إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري[2].

ومع هذا النجاح الذي حقّقه الصليبيون في الشرق الإسلامي، كان من الطبيعي أنْ تنتهي أو تخفّ حدّة الرؤى والأحلام المقدسة بين الصليبيين إذ لا مبررَ لها طالما أنّ الرياح مواتية لهم، فأينما حلّت الأزمات، هبطت الرؤى والأحلام، لذا لا نكادُ نعثر على أي رؤيا أو حلم من هذه الأحلام في المصادر الأوروبية خلال هذه الفترة إلّا ما ندر.

لكنْ مع بداية حركة الجهاد الإسلامي ضدّ الوجود الصليبي في بلاد الشام أخذت بعضُ الضربات تتوالى على الصليبيين، ومن ثمّ بدأت الرؤى والأحلام المقدّسة تطلّ برأسها من جديد. ففي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، أقطع السلطان محمود السلجوقي مدينة ميافارقين للأمير إيلغازي الذي سار لحرب الإفرنج بعد ذلك ودخل حلب، حيث انضمّ إليه ابن أخيه نور الدولة بُلك بن بهرام بن أرتق، الذي سار بعد ذلك إلى بلاده، وفي طريقه علم بُلك أنّ جوسلين

(١) جوناثان سميث: تاريخ أوكسفورد. ص١٦٧.
(٢) د/ سعيد عاشور: الحركة الصليبية. جـ١ ص٣٦٧.

دي كورتناى أمير الرها، يتربّص به للانقضاض عليه على غِرّة، فما كان منه إلّا أنْ أعدّ كمينًا لعدوه، وقع فيه هذا بسهولة، فأخذته سهام المسلمين، فوقع أسيرًا، واقتيد هو وبعض رجاله أسرى إلى قلعة خرتبرت في جبال كردستان، حيث ألقوا في غياهب السجن[١].

غير أنّ بعضَ سكان القلعة من الأرمن، اتصلوا بجوسلين سرًّا، بناءً على طلبه، فسلّمهم رسالة إلى أصحابه في الرها، أوصلوها لهم، فانتدب هؤلاء خمسين شخصًا من الأرمن الأشدّاء، الذين تنكّروا بزي الفقراء، ورجال الدين، واستطاعوا بالحيلة الدخولَ إلى القلعة وقتل الحراس وبالتالي الوصول إلى السجن وتخليص جوسلين منه[٢].

غيْر أنّ فوشيه الشارتري كان له رأي آخر في فرار جوسلين من السجن في قلعة خرتبرت، مبنيّ على الرؤى والأحلام المقدسة كالعادة، يقول الشارتري عن ذلك[٣]: «لا أظنّ أنّ عليّ أنْ ألتزم الصمتَ حيالَ مصيبة تراءت لتلك في طيف خيال، فقد رأى- وقد روى ذلك بنفسه فيما بعد- مقلتيه يقتلعهما جوسلين، فأخبر حكماءه على الفور، علّه يعلم منهم تفسيرَ هذا الحلم، فقالوا: حقًّا سوف يحلّ بك ذلك، أو ما لا يقلّ عنه سوءًا إذا ما وقعت بين يديه، وحال سماع ذلك أرسل بُلك رجالًا على الفور لقتل جوسلين لئلّا يُقتَل هو على يديه، كما ورد في النبوءة، ولكن قبل أنْ يصل القتلة إلى جوسلين كان قد نجا، بحمد الله من الأسر».

ويتمادى فوشيه الشارتري في روايته، ويذكر بأنّ هذا الحلم قد تحقق بالفعل، يقول عن ذلك[٤]: «أراد جوسلين أنْ يتيقّن من وفاة بُلك أو من نجاته، وبعد أنْ تفقّد الباحثون من رجاله جثثَ الموتى، تحقّقوا من جثة بُلك لشارات على درعه مألوفة لَمن يعرفه، قطع رجل رأس بُلك وحملها إلى جوسلين مهنئًا. انظر كيف بأنّ تفسير الحلم الذي ذكرناه من قبل، الحلم الذي

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية. ص٢٣٨- ٢٣٩.
(٢) المرجع السابق: ص٢٤١.
(٣) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٢٠١.
(٤) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٢١٢- ٢١٣.

رواه بُلك، وكأنّه يتنبأ بحتفه عندما نجا جوسلين من الأسر بأعجوبة[1]. والحقّ أنّ جوسلين حطم بُلك تحطيماً شاملًا إذ جروه من الرأس والأعضاء».

وبالاطّلاع على المصادر التاريخية الأخرى، لم نعثرْ على أي ذكر لحلم بُلك هذا، لا من قريب أو بعيد، والذي ادّعى فوشيه الشارتري بأنّ بُلك قد رواه بعد ذلك بنفسه، فكان من الأجدى أنْ نجد له ذكرًا في المصادر العربية على الأقلّ، هذا فضلًا عن أنّ بُلك نفسه لم يُقتل من الأساس على أيدي الصليبيين، ناهيك عن جوسلين نفسه.

فقد قتل بُلك أثناءَ حصاره لقلعة مدينة منبج[2]، حيث أصيبَ بسهمٍ قاتل، لم يعرف راميه، فاضطرب عسكرُه عندئـذ، وتفـرّق، وخلص حسان البعلبكي- حاكم المدينة الموالي للصليبيين- واستعاد المدينة في ٢٧ ربيع ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، وكان من جُملة القادة في جيش بُلك، ابن عمّه تمرتاش بن إيلغازي، فحمله مقتولاً إلى حلب وتسلّم المدينة[3]. ويتّضح من خلال هذا أنّ حلم بُلك السالف الذكر، كان من بنات أفكار فوشيه الشارتري، وليس له أيّ أساس من الصحة، مثله مثل غيره من الرؤى والأحلام التي أثقلت كتابه.

وبعد سقوط إمارة الرها الصليبية في يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، كان لا بدّ من خروج حملة صليبية جديدة من أوروبا لإنقاذ موقف الصليبيين في الشرق، فكان من الطبيعي أنْ تظهر الرؤى والأحلام من جديد لتساهم بدورها في الدعوة لما عُرف بالحملة

(١) تذكر المصادر التاريخية الأوروبية الأخرى بأن هروب جوسلين من السجن لم يكن أعجوبة أو أي شيء من هذا القبيل، بل بسبب الهجوم المفاجئ، يقول وليم الصوري عن هذا الهروب: قام الرهائن بقتل حراسهم الموكلين بهم في إحدى القلاع، إذ وثبوا عليهم وهم يغطون في سباتهم. ولما تمّ لهم ذلك تسللوا خلسة تحت جنح الظلام وسلكوا دروبًا ملتوية واتخذوا طريقهم إلى بلدهم «الحروب الصليبية. جـ٢ ص٢٧٤.

(٢) منبج: بلد قديم بينها وبين حلب يومان وإلي ملطية أربعة أيام- في الجمهورية السورية حاليًا- الحموي: معجم البلدان. جـ ٥ ص ٢٠٥- ٢٠٧.

(٣) برجاوي: الحروب الصليبية. ص٢٤٣.

الصليبية الثانية. غير أنّ هذه الرؤى لم تكنْ بالقدر والكمية التي شهدتها الحملة الصليبية الأولى، وذلك يرجع إلى اختلاف الظروف التي أحاطت بكلتا الحملتين.

وتأتي في مقدّمة هذه الرؤى، الرؤيا التي ذكرها المؤرخ أوتو أسقف فريزنغ والتي قصدَ من خلالها عودةَ ثقة الشعوب الأوروبية في البابوية وفي مكانة البابا، على اعتبار أنه الراعي الرسمي للحركة الصليبية، يقول أوتو عن هذه الرؤيا[1]: «في سنة ١١٤٥م/ ٥٤٠هـ، وصل وفدٌ ديني مرسل من الأساقفة الأرمن ومطرانهم، جاء هذا الوفد إلى الحبر الأعظم- البابا- في فيتربو Viterbo وقد رأى أحدهم ما يلي: بينما كان الحبرُ الأعظم يقوم بالقداس المقدس أضاءت الشمس وانتشرت أشعتُها فجأة حول رأسه بشكلٍ كلّه بهاء، وأثناء ذلك كان هناك حمامتان تصعدان وتهبط وسط نور الشمس.. ولعدم رؤيته وجود فتحة يمكن للضوء أنْ يتّخذها طريقًا له، أدرك أنّ هذا كلّه كان من عمل الرب، وهنا ازداد يقينًا بطاعة الكنيسة الرومانية، وجعل معروفًا ما رآه أيضًا إلى جميع الناس، غير أنّ الأب المبجل رفض أنْ يعزو هذا إلى فضائله الخاصة، وأعلن أنّه بالأحرى بسبب إيمان هذا الأسقف، أبيحت له هذه الرؤيا من السماء».

غيْر أنّ أهمّ تلك الرؤى والأحلام في هذه الفترة من عمر الوجود الصليبي في بلاد الشرق الإسلامي الرؤيا التي تحدّثت عن سبب اشتراك ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية، ففي حين لم يشترك أيّ ملك في الحملة الصليبية الأولى، فإنّه بعد نصف قرنٍ عندما ناشد البابا يوجينيوس الثالث (١١٤٥- ١١٥٣م/ ٥٤٠- ٥٤٨هـ) تقديم المساعدة لمملكة بيت المقدس التي كانت تتوسّل بشدّة، استجاب الملك لويس السابع- ملك فرنسا- بحماس لهذه الدعوة، إذ جاء هاتفٌ غيبي على لسان متنبّئ، وجرت دراسته بلهفة، وكلّ ما كان واضحًا حول هذا الهاتف هو أنه وعدَ لويس بمدن القسطنطينية وبابل- العراق- وإمبراطورية في آسيا الصغرى، وكان تأثير هذا الهاتف كبيرًا جدًّا، ولولا تلك التعاليم، ربما لم تكن هناك حرب صليبية، علاوة على ذلك كان الهاتفُ قد درس لا في فرنسا فقط، بل في ألمانيا أيضًا[2]. ولعلّ أكبر دليل على

(١) المدينتان: الموسوعة الشامية. جـ٢٨ ص٣٤٠- ٣٤١.

(٢) د/ سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية.الموسوعة الشامية. جـ٤ ص٩١- ٩٢.

عدم صدق هذه الرؤى والنبوءات، وأنّ الدافع من وراء إذاعتها هو حثّ ملك فرنسا لويس السابع وغيره من سذج أوروبا على الانخراط في سلك الحملة الصليبية الثانية، أنها وعدت ملك فرنسا بالاستيلاء على عدّة مدن وبتكوين إمبراطورية في آسيا الصغرى، لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث، فقد كانت الحملة الصليبية الثانية من أفشل الحملات الصليبية على الشرق، وبدت هذه الحملة وكأنّها نكبة أصابت الصليبيين في الشرق، إذ أنها قضت على كلّ أمل لهم في الاعتماد على أوروبا لإمدادهم بالعون، والمساعدة في المستقبل، بعدما فقدوا الثقة بأولئك الغربيين، الذين لا يعرفون كيف يتصرفون عند مجيئهم إلى الشرق[1].

ولم يكفّ رجال الدين المسيحي من الغربيين عن استخدام سلاح الرؤى والأحلام في التحكّم في عواطف العامة والخاصة من الأوروبيين في أحداث الحملة الصليبية الثانية. ففي سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وصل الخبر بأنّ ملوك الإفرنج وصلوا إلى بيت المقدس، وصلّوا صلاة الموت، وانحدروا إلى عكا. فلمّا كان يوم السبت سادس ربيع الأول لم يشعروا بهم إلّا وهُم على باب دمشق، وكان معهم قسيس طويلٌ بلحية بيضاء فركب حمارًا أحمر، وترك في حلقه صليبًا، وفي حلق حماره صليبًا، وأخذ في يده صليبيْن، وقال للإفرنج: إنّي قد وعدني المسيح أنْ آخذ دمشق ولا يردّني أحد. فاجتمعوا حوله وأقبل يطلب دمشق، فلمّا رآه المسلمون غاروا للإسلام، وحملوا عليه بأجمعهم، فقتلوه وقتلوا الحمار، وأخذوا الصلبان فأحرقوها[2].

وقد رفع الإفرنج حصارَهم عن دمشق، وبدءوا بالانسحاب عائدين إلى القدس، وهُم أكثر خلافًا من ذي قبل في ١١ ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، ولم يسلم جيشهم من سهام المسلمين الذين كانوا يتعقبونه في انسحابه، بحيث قضوا على كلّ مَن استفردوه منه[3]. وهكذا أخلف الربّ وعدَه، ولم يمنح دمشق للصليبيين كما وعدَ هذا القس، وفي هذا دليلٌ كبيرٌ على أنّ هذه الرؤى والوعود كانت مجرد اختلاق.

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية. ص٣٠١.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٩٩٢م. جـ١٨ ص٦٣- ٦٤.
(٣) برجاوي: الحروب الصليبية. ص٣٠٠- ٣٠١-.

دورُ الرّؤى والأحلام في الدعوةِ للحملة الصليبية الثالثة

تعدّ الحملة الصليبية الثالثة، من الناحية الروحية، أقلّ شأنًا من الحملة الصليبية الأولى، على الرغم من أنّها تفوقها في المظاهر المادية، على أنه ينبغي التسليم بأنّ الحركة الصليبية صحبتها سنة ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ فكرة إحياء الروح الدينية، ذلك أنّ أوروبا- حسب الاعتقاد السائد حينئذ- أجرمت في حقّ الله، فلو لم تجرمْ أوروبا لما سقط بيت المقدس[١].

يقول المؤرخُ المجهول عن الرؤى التي سبقت سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين[٢]: «كان يومُ النكبة يقترب بتقدّم شعبنا لقتال السلطان- يقصد به صلاح الدين الأيوبي- ورأى حاجب الملك، الصليبي جي لوزنيان، ذاتَ ليلة في نومه حلمًا مزعجًا، وهو أنّ نسرًا كان يُحلّق فوق الجيش المسيحي قابضًا بمخالبه على سبعة سهام مريَشة ونشابة، ويصرخ صرخاتٍ مفزعة، ويقول[٣]: وا تعسًا لك يا أورشليم».

غير أنّه تمّ استغلال الرؤى والأحلام المقدسة في شيء أكبر من ذلك، وهو الدعوة إلى حملة صليبية جديدة على أثر سقوط القدس في يد صلاح الدين، فيعتبر كونراد مونتفرات مسئولًا أكثر من غيره عن الحرب الصليبية الثالثة، فقد وصل إلى مدينة صور، بعد أنْ مضى على موقعة حطين ثلاثة أسابيع، استطاع كونراد أنْ ينقذ مدينة صور، ومنها أرسل مرارًا إلى الغرب يلتمس النجدة، ومن أقوى الوسائل التي استخدمها في طلب النجدة، ما بعث به إلى الغرب من لوحة كبيرة جرى الطواف بها في أوروبا، وهي تمثّل القبر المقدس، وقد لوّثته خيول المسلمين[٤].

---

(١) أرنست باركر: الحروب الصليبية. ترجمة د/ السيد الباز العريني- دار النهضة العربية- بيروت- لبنان- الطبعة الثانية ١٩٦٧م. ص٨٧.

(٢) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة. جـ١ ص٣٤.

(٣) ذكر هذا الحلم أيضًا المؤرخ روجر أوف ويندوفر: لكنه قال عن صيغة الصراخ: الويل لك يا قدس. الويل لك يا قدس، ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٣١٧.

(٤) أرنست باركر: الحروب الصليبية. ص٨٦.

وقد ذكر هذه الوسيلةَ أيضًا المؤرخُ العربي المسلم ابن الأثير، وإن كان قد عبّر عن الصورة التي صوّر بها السيد المسيح بطريقةٍ مختلفة، فقال عن ذلك[1]: «إنّ الرهبان والقسوس وخلقًا كثيرًا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزنَ على خروج بيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس[2]، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعًا، ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوّروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورةِ عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد ﷺ نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله».

لكنّ المتطّلع لرواية ابن الأثير هذه، ليعرفُ مِن الوهْلة الأولى مدى السذاجة والتّعصب الأعمى الذي كان يلقي بظلاله على عقلية العامّة والخاصّة في أوروبا في ذلك الوقت. فإنّ هذه الصورة لا يمكن أنْ يصدّقها عقل، إذ أنّ هناك أكثر من ستمائة عام ما بين وفاة السيد المسيح عليه السلام، وبعثة محمد ﷺ، أي أنهما لم يلتقيا مطلقًا تاريخيًّا، فكيف يضرب محمدٌ المسيح!؟ فلا شكّ أنّ مثل هذه الصّور قد وجدت بيئة فاسدة عقليًّا قد ساعدتها على الانتشار، وهو ما حدث بالفعل، على أية حال ما كادت تلك الأنباء تصل إلى روما حتى بادرت البابوية بإرسال المنشورات إلى سائر أنحاء أوروبا[3].

فقد كانت كتابةُ التقارير وإرسالها إلى أوروبا وقتئذ سائدةً كعمل إعلامي لحثّ الناس وتشجيعهم على المشاركة في الحروب الصليبية؛ لأنّ المهمّة الكبرى للقساوسة ورجال الدين

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ١٢ ص٣٢- ٣٣.

(٢) عندما تمّ فتح القدس على يد صلاح الدين، لم يحفل هذا البطريرك وهيئته الكنسية إلّا بأنفسهم، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك يؤدي عشرة دنانير مقدار الجزية المطلوبة منه، ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته العربات تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة. رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ ص٧٥٢- ٧٥٣.

(٣) أرنست باركر: الحروب الصليبية. ص٨٦.

في تلك الفترة كانت تتمثّل في ترغيب أكبر عددٍ مُمكن من الناس للتوجه والمشاركة في الحروب الصليبية من منطلق ديني[١].

وقد أكّد على هذا الأمر بعضُ المؤرخين الأوروبيين مثل فوشيه الشارتري الذي يقول عن الدافع من وراء تدوينه لكتابه[٢]: «مع أنني لا أجرؤ على مقارنة أعمال الفرنجة السابقة الذكر، بإنجازات الإسرائيليين أو المكابيين[٣] العظيمة، أو كثير من شعوب الله المختارة، التي حباها بالمعجزات المتعددة الخارقة إلّا أنني لا أعتقدُ أنّ انجازات الفرنجة تقلّ عنها شأنًا، فالمعجزات الإلهية تحقّقت مرارًا بينهم، وقد سعيت جاهدًا لإحياء ذكراها بالكتابة»، فقد كان الرهبان هم الطبقة المتعلمة الوحيدة في أوروبا في العصور الوسطى، ومن ثمّ صاروا بالطبع هم مؤرخوها الوحيدون، وإذ كنا ندين لجهودهم وإخلاصهم، فإنّ خرافاتهم الدينية وتطرفهم الديني، فضلًا عن تعصبهم العنيف لمكاسبهم ونفوذهم الديني، كلّ ذلك كان سببًا في تحريف عملهم التاريخي وتشويهه[٤].

وهناك مثالٌ آخر للهوس الديني حدث في جنوب وسط فرنسا عام ١١٨٢م/ ٥٧٨هـ، حيث رأى نجار مغمور يدعي دوراند ليبوي Durand of le puy رؤيا أمرته فيها السيدة العذراء أنْ يدعو الناس إلى السلام، وأعطته قطعة صغيرة من جلد الرّق، عليها صورة العذراء تحمل الطفل يسوع بين يديها، وعلى جلد الرّق أيضًا الدّعاء التالي: «أيها المسيح الذي حملت ذنوب العالم. هبْ لنا السلام»، وسرعان ما تجمّعت حول دوراند حركة كبيرة كرست نفسها للقضاء على اللصوص وقطاع الطرق في الأقاليم وتمتعت الرابطة الجديدة بتأييد كلّ طبقات

(١) ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين. ص١٥- ١٦ مقدمة الترجمة العربية.

(٢) تاريخ الحملة إلى القدس: ص٢٦.

(٣)المكابيون Maccabee: اسم جنس أطلقه التقليد المسيحي على جميع إخوة يهوذا المكابي ولاسيّما على الذين خلفوه على رأس ثورة اليهود، وهناك ما يعرف بسفري المكابيين في الكتاب المقدس. اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص٤٧٧.

(٤) هاري بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية. جـ١ ص٨٥.

المجتمع، ثمّ انقلبت ضدّ المؤسسات الحكومية، ففقدت تأييد النبلاء والكنيسة وصارت حركة منبوذة، وطوردت حتى تمّ القضاء عليها.[١] وفي نوفمبر سنة ١١٨٩م/ ٥٨٥هـ. قدِم من فرنسا إلى إنجلترا (روثرود) كونت بيرش، فأشار إلى أنّ الملك فيليب- ملك فرنسا- أتمّ استعداداته للحرب الصليبية، وأنه يودّ أنْ يجتمع بالملك ريتشارد ليتناقشا في أمر اشتراكهما معًا في الرحيل، وحدث في نهاية سنة ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ؛ أنْ وصل إلى البلاط الفرنسي من عملائه- أي الكونت روثرود- بالقسطنطينية رسالة تشير إلى نبوءة أذاعها دانيال الزاهد المقدس، بأن الفرنج سوف يستعيدون الأرضَ المقدسة في السنة التي يحلّ فيها عيد البشارة[٢] في يوم أحد القيامة، وسوف يحدث اقترانُ العيدين في سنة ١١٩٠م/ ٥٨٦هـ، وأضافت الرسالة أنّ صلاح الدين يواجه متاعب بسبب ما شجر من منازعات بينه وبين أفراد أسرته وحلفائه[٣].

وقد أسهمت هذه النبوءاتُ- وغيرها من الأحلام السالفة الذكر، على الرغم من زيفها- في زيادة الحماسة الدينية عند سكان الغرب الأوروبي؛ فهبّوا للانخراط في سلك الحملة الصليبية الثالثة، وقد صوّر أثر هذه السخافات في الدعوة للحملة الصليبية الثالثة المؤرخُ العربي ابن الأثير الذي يقول عن ذلك[٤]: «عظم ذلك على الفرنج، فحشروا وحشدوا حتى النساء. ومَن لم يستطع الخروج استأجر مَن يخرج عوضه، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء، وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حدّه، فخرجوا على الصعب والذلول برًّا وبحرًا، من كلّ فج عميق».

---

(١) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٥٤- ١٥٥.

(٢) عيد البشارة Annunciation: المقصود به بشارة جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام بأنها حامل في المسيح عليه السلام، ويحتفل به المسيحيون يوم ٢٥ مارس من كلّ عام، ويسمّى أيضًا يوم العذراء Lady day د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ١ ص٩٢.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم ١ ص٢٨.

(٤) الكامل في التاريخ: جـ١٢ ص٣٢- ٣٣.

أثرُ الرؤى والأحلامِ في صليبيّة ريتشارد قلب الأسد

عندما تمّ تتويج الملك ريتشارد الأول Richard ملكًا على إنجلترا في عام ١١٨٩م/ ٥٨٤هـ. كانت أسطورة الملك آرثر Arthur وبلاطه الملكي من الأشياء الشائعُ الحديثُ عنها بين نُبلاء دائرة حكم الملك ريتشارد، فقد أراد الملك هنري الثاني Henry II- الذي سبق ريتشارد في الحكم- وريتشارد أنْ يجعلا حكمهما مستقيًا بالسموّ والجلال الذي كان عليه حكم آرثر(١).

وكان الملك آرثر هذا قد قاد القوات البريطانية في سلسلة المعارك التي انتهت بها إلى نصر حاسم في جبل بادون Badon في مكان ما جنوبي إنجلترا، حوالي سنة ٥٠٠م، وعلى الرغم من أنّ النصر النهائي كان لقبائل السكسون، إلّا أنّ شهرة آرثر عاشت لمدّة طويلة في ذاكرة البريطانيين المهزومين هُم وأحفادهم(٢). وقد نسجت عن الملك آرثر الكثيرُ من الأساطير، وكان يلقب بالغربي المتهور The wild west(٣). فانتشر خلال العصور الوسطى اعتقادٌ قوي بأنّ آرثر لم يمت، وأنه سيعود إلى الناس مرّة أخرى ليقاتل الأعداء(٤).

قام الملك ريتشارد بدمْج شخصيته بالمفاهيم البريطانية الخاصّة بالرجوع المسيحي للملك آرثر، وتوقّعات ظهور إمبراطور نهاية العالم من أجل أنْ يدعم الحركة الصليبية أنّ التوقعات الخاصّة بظهور إمبراطور نهاية العالم ودخوله أورشليم في نهاية الزمن، كان بداية ظهورها بين البيزنطيين في بداية القرن الرابع الميلادي، وهذه التنبؤات تمّ تنقيحها وتبنيها في القرن الثاني عشر الميلادي، كي تنطبق على ملوك الغرب والصليبيين. بالإضافة إلى ذلك ففي القرن الثاني عشر

(1) Cynthia Resor: Richard I takes the cross: the twelfth century culture of crusade، college of arts and sciences. university of Kentucky. U. S. A. 2002. P. 199 - 200.

(2) New catholic encyclopedia. Vol، 1. P. 759. Arthurian.

(3) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. PP. 199 - 200.

(٤) د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ١ ص١٢٣- ١٢٤.

الميلادي ارتبطت التوقّعات المسيحية بالملك آرثر ليكون هو إمبراطور نهاية العالم. فذكروا بأنّ الملك آرثر لم يمتْ في حربة الأخيرة، ولكنه انسحب إلى جزيرة أفالون Avalon ليدمّض جراحه، ولاحظ كتّاب هذا العصر بوجود أمل بين الناس في عودة هذا الملك البطل. ولكنّ ريتشارد سعى إلى أنْ يقدّم نفسه على أنه هذا الملك البطل (آرثر) لكي يجعل دوره شرعيًّا لملك قوي جدًّا ومحاربٍ لا يقاوَم. ومع وجود ادّعاء بوجود نبوءة تعدُ الناس بظهور ملك في نهاية العالم والمتمثل في الملك آرثر، وضع الملك ريتشارد نفسه في التاريخ باعتبار أنّ الرب قد عيّنه ليكون بطلَ هذه المهمّة، ونتيجةً لذلك قام ريتشارد بتوفير الدّعم الذي يحقّق النصر النهائي لحملته الصليبية[1].

ولم يتشبّه ريتشارد بالملك آرثر في طريقة الاحتفال وتنظيم البلاط الملكي فقط، بل كان يمتلك أثرًا مهمًّا للملك آرثر، وهو سيف آرثر المشهور، وعلى الرغم من أنّه غير معروف كيف تملّك هذا السيف، إلّا أنه حمل معه هذا السيف عندما ترك إنجلترا، وذهب في حملته الصليبية نحو الشرق[2].

وفي شتاء عام ١١٩٠م/ ٥٨٦هـ ، في مشنا Messina في طريق ريتشارد للأرض المقدسة قابل يواقيم[3] Joachim وهو متنبأ مشهور- لديه روح نبوءة، ويخبر الناس بما سيحدث في المستقبل- وادّعى ريتشارد بأنه قد تلقّى وعدًا بنصره في المستقبل، لذلك اهتمّ بالدعم الإضافي الذي جاء له من يواقيم، ولكن تفسير يواقيم للرؤيا كان مختلفًا عمّا كان يتوقّعه ريتشارد وحاشيته[4].

قام يواقيم بشرح صفحةٍ لريتشارد من كتاب سفر الرؤيا تتحدّث عن السبعة ملوك الذين سيظهرون، حيث قال إنّ خمسة من هؤلاء الملوك سيسقطون، والسادس سوف يخسر الأرضَ

(1) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. PP. 218 - 220.

(2) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. P. 204.

(٣) هو الراهب المسيحي يواقيم أوف فيوري Joachim of fiore الذي اشتهر بنبوءاته عن نهاية العالم، كارول هيلمنبرايد: صلاح الدين تطور أسطورة غربية. ندوة اللجنة المصرية للتضامن بالقاهرة يونيو ١٩٨٧م- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٨٩م. ص١٠٥.

(4) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. P. 244 - 245.

المقدسة سريعًا، وسيأتي بعد ذلك ملك سابع، وتحدّث يواقيم أيضًا عن المذبحة[١] التي ستحدثُ في الأرض المقدسة، وهذا العنفُ الذي سيحدث سيؤدّي إلى أنّ أتباع صلاح الدين يتركون المدن في الأرض المقدسة ممّا يمهّد إلى رجوع المسيحيين، ثمّ تحوّل يواقيم إلى ريتشارد قائلًا له: إنّ الربّ حفظ هذه العلامة، وستحدث من خلالك، وسوف يعطيك الربّ النصر على الأعداء، ويمجد الربّ اسمك إلى الأبد، وأنت ستمجّد الرب، ومن خلالك سيعظم الرب إذا واصلت في ذهابك»[٢].

فقد شرحَ له القديس يواقيم معنى الرؤيا (رؤيا القديس يوحنا) إذ أشار إلى أنّ الرؤوس السبعة للوحش ليست سوى هيرودس، ونيرون، وقلسطنطيوس، ومحمد ﷺ، وميلسموت (الذي يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين)، وصلاح الدين، ثمّ أخيرًا المسيح الدجال[٣] الذي صرّح يواقيم أنّه جرت فعلًا ولادته في روما منذ خمس عشرة سنة[٤].

وذكر يواقيم في روايةٍ أخرى بأنّ صلاح الدين سوف يخسر أورشليم، وحينما سأله ريتشارد عن تاريخ حدوث ذلك، أجابه يواقيم: «عندما تمرّ سبعة أعوام من أوّل يوم احتلّ فيه صلاح الدين أورشليم»، ثمّ سأله ريتشارد: لماذا لا نذهب في وقتٍ مقارب من نهاية السبعة أعوام؟ فردّ عليه يواقيم: إنّ ذهابك شيء ضروري جدًّا؛ لأنّ الربّ سوف يمنحك النصر على كلّ

(١) في ٢٧ رجب ٥٨٧هـ/ ٢٠ أغسطس ١٩٩١م نفذ الملك ريتشارد قلب الأسد مذبحة كبرى في الأسرى المسلمين قتل فيها زهاء ثلاثة آلاف أسير مسلم، وقد لقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم، ولما انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة والمتعفنة. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٤ ص١٠٦. ربما يكون السبب الحقيقي وراء تنفيذ هذه المذبحة هو رغبة ريتشارد في تحقيق نبؤة يواقيم بحدوث مذبحة في الأرض المقدسة، تمهيدًا لانتصاره على صلاح الدين وليس لخلافه معه حول تنفيذ معاهدة تسليم عكا، كما هو شائع في المصادر التاريخية العربية .

(2) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. P. 245.

(٣) المسيح الدجال Antichrist: ورد في العهد الجديد أنه سيظهر قبيل مجيء المسيح الثاني ويكون خصمًا للمسيح، وسببًا للارتداد عن الدين، ويطلق هذا الاسم أيضًا على أصحاب البدع على مرّ تاريخ المسيحية. اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص٤٦٠.

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم ١ ص٨٧.

أعدائه، ويمجّد اسمك على كلّ أمراء الأرض»[1]. وعندما كان أسطول الملك ريتشارد في طريقه إلى الأرض المقدسة لم تكفّ المصادر الأوروبية عن ذكر المزيد من هذه الرؤى والأحلام، من ذلك قول المؤرخ روجر أوف ويندوفر[2]: «تعرّض الأسطول عند السواحل الأسبانية لعاصفة فرقت السفن على الفور، وفي أثناء هياج العاصفة، وعندما كان الجميع خائفين يدعون إلى الرّب، ظهر توماس الشهيد المبارك رئيس أساقفة كنتربرى في أوقات ثلاثة متنوّعة إلى ثلاثة أشخاص مختلفين، وقال لهم: «لا تخافوا، لأنّني أنا، وإدموند الشهيد المبارك، والقديس نيقولا المعترف، قد جرى تعييننا من قِبَل الرب من أجل حراسة أسطول ملك إنجلترا، وإذا ما نأى البحّارة وقادة الأسطول بأنفسهم عن الذّنوب وتابوا من ذنوبهم الماضية؛ سوف يمنحهم الرب رحلة موفقة، وسيوجّه سبلهم في ممرّاته»، وسمعت هذه الكلمات ثلاثَ مرّات متواليات، وإثرها اختفى القديس توماس، وتوقّفت العاصفة وهدأت».

غيْر أنّ شيئًا من هذه الأحلام والنبوءات لم يحدث، فلم يهزم صلاح الدين الأيوبي، ولم يستولَ ريتشارد على القدس، بل ولم يصبح إمبراطور آخر الزمان، فقد تمّ التغرير به من قِبَل رجال الدين، مثله مثلَ غيره من أبناء الغرب الأوروبي السّذج، للانخراط في المشروع الصليبي الاستعماري، لكن دون فائدة. ففي عام ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ، غادر ملك الإنجليز مدينة يافا إلى عكا، حيث أبحر من هذه المدينة إلى بلاده تاركًا وراءه ذكرى رجل الحربِ الكبير، كما أبحر أغلب فرسان الصليبيين وجنودهم، إذ لم يعدْ ثمّة ما يفعلونه في الشرق بعد الهدنة التي عقدوها مع صلاح الدين الأيوبي[3]. لقد كان فشل الحملة الصليبية الثالثة، والتي كان من المتوقّع نجاحها مستقبلًا، وذلك عندما رحل ريتشارد للأرض المقدسة، وتصرفاته وأفعاله قبْل وأثناء الحملة، يقرّ بأنّ ريتشارد كان يأمل أنْ يلحق نفسه بالأسطورة القديمة «آرثر» من أجل أنْ يطغى على الرونق الخاصّ بفليب أوغسطس ملك فرنسا، فقد استغلّ ريتشارد الحملة الصليبية ليبني لنفسه هالة، كملك قويّ أمام شعبه، وليحسّن من صورته ومصداقيته أمام الكنيسة[4].

(1) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. P. 245 - 246.

(٢) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٣٦١.

(٣) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية. ص٤٣٨.

(4) Cynthia Rosor: Richard I takes the cross. P 250.

رؤى وأحلامُ استيلاءِ الصليبيين على القسطنطينية

كانت الرؤى والأحلامُ هي التي توجّه الحوادث وترشدها في الدولة البيزنطية- حتى قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق- فإنّ الإمبراطور لاوون الخامس (٨١٣- ٨٢٠م/ ١٩٨ـ ٢٠٥هـ) رأى في منامه أنّ ميخائيل العموري- أحد خصومه- سيقتله، وامتنع الإمبراطور يوحنا الثاني عن تتويج ابنه الأكبر بسبب أحدِ الأحلام، على حين أنّ لاوون الخامس- أيضًا- علم بقرب منيّته من كتاب للتنبؤات والصور الرمزية[١].

لكنْ مع قدوم الصليبيين إلى الشرق وانتشار الرؤى والأحلام المقدسة بينهم، كان من الطبيعي أنْ تأخذ الإمبراطورية البيزنطية حظّها من هذه الرؤى والأحلام. يقول يوحنا كيناموس عن مرض الإمبراطور جون [٢] الذي مات فيه[٣]: «بدأ الإمبراطور يرتجفُ في قرارة نفسه لتوقّعه الموت، خاصّة بسبب أنه لم ينفّذ خطته التي ناضل من قبْل في سبيل تحقيقها، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين. وبما أنّه وقتذاك في حالةٍ مستعصية على الشفاء، استدعى رجلًا مقدسًا، وكان راهبًا، وسأله أنْ يطلب له الرحمة الربّانية بالصلاة طوال الليل، ولقد قيل إنّه بينما كان الراهب مكرسًا نفسه للصلاة، سمع أصوات غناء، وانبعث ضوء رؤي من مكان مرتفع، وكان هناك شابّ رباني أوقف روحه المضطربة».

ويقول المؤرخ السالف الذكر- أيضًا- عن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول (١١٤٣ـ ١١٨٠م/ ٥٣٨ـ ٥٧٦هـ)[٤]: «كان هناك واحدٌ من أمناء سرّ الإمبراطور، اسمه ثيودور وكنيته

(١) رنسيمان: الحضارة البيزنطية. ص٢٦١- ٢٦٢.

(٢) حكم الإمبراطور جون الرومان لمدة ٢٥ سنة و٧ أشهر، وتوفى في أبريل سنة ١١٤٣م/ ٥٧٦هـ. يوحنا كيناموس: أعمال يوحنا ومانويل كومينوس. الموسوعة الشامية. جـ٢٨ ص٤٦.

(٣) المصدر السابق: جـ٢٨ ص٤٣.

(٤) يوحنا كيناموس: أعمال يوحنا كيناموس. الموسوعة الشامية. جـ٢٨ ص١٨٣.

ستيبوتس Stypeiotes، وكان من المقربين بشكلٍ خاصّ من الإمبراطور، ولكن عندما برهن هذا التعيسُ أنه سيئ النوايا نحوه ومختلّ، فقدَ لسانَه مع عينيه، ذلك أنّه تنبأ لعددٍ كبير من الناس وأخبرهم على شكل ما يفعله الأنبياء، أنّ مدّة حياة الإمبراطور قد شارفت على الانتهاء»، ومن العجيب أنّ يوحنا كيناموس يتّهم هذا الرجل بأنه مُختل، لأنّ نبوءته لم تكن على هواه وهوى سيده الإمبراطور، في حين يمدح صاحب الرؤيا السالفة الذكر ويصفه بالقداسة، لأنّ رؤياه تتماشى مع ما يرنو إليه.

ومع قرب الهجوم الصليبي على عاصمة الدولة البيزنطية فيما عرف بالحملة الصليبية الرابعة، بدأت الأحلام والرؤى المقدسة تطلّ برأسها من الغرب اللاتيني من جديد، فقد استخدموا هذا السلاح الخطير، ليس في حربهم مع المسلمين في الشرق فقط، بل مع إخوانهم في المسيحية، وهذا دليلٌ كبير على نيتهم في كثلكة العالم.

ففي سنة ١١٩٨م/ ٥٩٥هـ، ظهر في فرنسا رجلٌ تقيّ صالح- على حدّ تعبير المؤرخ- اسمه فولك دي ني، الذي كان من قرية (ني) الصغيرة، وكان واعظًا وقسيسًا، وقد ظهر على يد هذا الرجل الصالح كثيرٌ من الأمور الباهرة، وذاعت شهرتُه حتى بلغت مسامعَ البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ـ١٢١٦م/ ٥٩٥ـ٦١٣هـ) بابا روما[١]، وقد عهد إليه البابا أنوسنت في نوفمبر ١١٩٨م، بالدعوة للحرب الصليبية بين الشعوب الأوروبية، وقد بدأ هذه الدعوة في النواحي المحيطة بباريس أولًا، وقد بالغ الناسُ في مآثره، ونسبوا إليه معجزات كانت من وهْم العامّة، وتدبيج أصحاب الأغراض، وقد مات هذا الواعظُ الداعية سنة ١٢٠٢م/ ٥٩٩هـ[٢]، أي قبْل اندلاع أحداث الحملة الصليبية الرابعة بفترةٍ وجيزة، وفولك دي ني هذا يذكّرنا بدوره وبأحلامه بالدور الذي قام به بطرس الناسك والأسطورة التي حيكت حوله في أحداث الحملة الصليبية الأولى.

---

(١) جيوفرى فلهاردون: فتح القسطنطينية. ترجمة د/ حسن حبشي- المجلس العلمي بجامعة الملك عبد العزيز- السعودية- الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ. ص٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص٤٣. حاشية رقم (٤).

وهناك مجموعةٌ من الأشعار تُنسب إلى الإمبراطور البيزنطي لاوون السادس (٨٧٠- ٨٨٦م/ ٢٥٧- ٢٨٣هـ) تُمعن في أستار الغيب والمستقبل، وتنبأت بكارثة عام ١٢٠٤م/ ٦٠١هـ[١]، أي باستيلاء اللاتين على القسطنطينية.

لقد بدتِ الإمبراطوريةُ البيزنطية في عين الغرب اللاتيني ذات صفتين متباينتيْن: فهي دولة مسيحية قبالة أعداءٍ غير مسيحيين، وحقّ على اللاتين مساعدتها، وهي كذلك دولة ملوّثة بالهرطقة[٢]، متحدّية روما أشدّ التحدي، معادية لكلّ محاولةٍ تبشيرية كاثوليكية في الجنوب الغربي من أوروبا، ثمّ إنه على الرغم مِن اعتراف رجال الدين من الكاثوليكيين والأرثوذكسيين بأنّ انفصال الكنيستين جاء وبالًا على الطرفين، فإنّ أحدًا لم يظهر شيئًا من الميل للنزول عن قليلٍ من رأيه المُبتسر أو كرامته الجوفاء، على أنّ اللاتين رأوْا أنّ ثمّة سبيلين لإقرار السلام، أوّلهما الاتفاق، وهو سبيل وعر، ولكنّه غير مستحيل، وثانيهما سبيل الحرب والاستيلاء، وهو ما ذهب إليه النورمانيون منذ البداية[٣].

فبعد أنْ قرّر قادة الحملة الصليبية الرابعة أنْ يكون هدفُهم مصر، وبينما هُم يستعدّون للإبحار إليها، إذا بثورةٍ تشبّ في القسطنطينية انتهت بخلع الإمبراطور إسحق الثاني، وفرار ابنه ألكسيوس إلى الغرب طالبًا المساعدة من البابوية وجموع الصليبيين، أمّا الثمن الذي عرضه ألكسيوس مقابلَ تلك المساعدة فكان مغريًا حقًّا يتلخّص في إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية، فضلًا عن مساعدة الصليبيين في حملتهم ضدّ مصر، ومن الطبيعي أنْ يصادف هذا العرض قبولًا من البابوية[٤].

---

(١) رنسيمان: الحضارة البيزنطية. ص٢٦١- ٢٦٢.

(٢) هرطقي Heterodox: ضدّ مستقيم الرأي، وتدل هذه الكلمة على من لا يوافق على صيغة الإيمان. اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي. ص٥٢٥.

(٣) هـ. فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى. ترجمة/ محمد مصطفى زيادة- **دار** المعارف- الطبعة السادسة ١٩٧٦م. جـ١ ص١٧٨- ١٧٩.

(٤) د/ سعيد عاشور: الحركة الصليبية. جـ٢ ص١٨٥.

هكذا سنحتِ الفرصةُ للصليبيين لنيْل مآربهم من عاصمة البيزنطيين، التي طالما علّلوا النفس بالاستيلاء عليها، منذ قامت أوّل حملة صليبية للشرق، نظرًا لما فيها من كنوزٍ وغنائم، وبسبب ما يفصل بينهم وبين البيزنطيين من خلافٍ في العقيدتين، وانفصال في الكنيستين.. وجاء الوقتُ الذي رأوا أنفسهم فيه قادرين على ذلك، فاستعدوا للضربة القاضية، وكان الموعدُ المعيّن لاقتحام القسطنطينية في التاسع من أبريل سنة ١٢٠٤م/ ٦٠١هـ، حيث انقضّ الصليبيون والبنادقة في آنٍ واحد على المدينة من الجهة الشمالية الشرقية[١].

لم يفلتْ من تخريب الصليبيين الأديرة والكنائس والمكتبات، بل حدث في كنيسة آيا صوفية ذاتها، أنْ جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية، ويحطّمون الأواني الفضية الكبيرة، وبينما كانوا يتناولون الشراب في أواني المذبح مبتهجين تربّعت عاهرةٌ على كرسي البطريرك، وأخذت تردّد أغنية فرنسية بذيئة، وتعرّضت الراهبات لاغتصابٍ في أديرتهن[٢].

وأمام هذه الانتهاكات التي ارتكبها الصليبيون في القسطنطينية تجاه إخوانهم في العقيدة، كان لا بدّ أنْ تطلّ الرؤى والأحلام المقدسة وكذلك النبوءات من قبَل الصليبيين، كي تبرّر ما فعلوه من جرائم على أنه كان أمرًا مقدرًا سلفًا، وأنهم كان ينفّذون إرادة الرب.

يقول روبرت دي كلاري أحدُ مؤرخي هذه الحملة الصليبية، عن مثل هذه المبررات[٣]: «في ناحية أخرى من المدينة- يقصد القسطنطينية- منظرٌ عجيب آخر، فقد انتصب هناك تمثالان من البرونز لامرأتين تفنن صانعهما بهما حتى شابها الطبيعة، وكان أحدُ هذين التمثالين يمدّ يده باتجاه الغرب، وعليه نقشت عباراتٌ فحواها: سيأتي قومٌ من الغرب فيستولون على القسطنطينية». ولم يتوقّف روبرت دي كلاري عند هذا الحدّ، بل ادّعى بأنّ خطة الاستيلاء على

(١) برجاوى: الحروب الصليبية. ص٤٦٥.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم ١ ص٢٢٢.

(٣) سقوط القسطنطينية: ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع. جـ١٠ ص٢٨١- ٢٨٢.

القسطنطينية بكلّ تفاصيلها كانت محفورةً على إحدى جدران صوامعها- نوع من الأديرة- منذ زمنٍ بعيد.

يقول روبرت دي كلاري عن ذلك[1]: «وفي جانبٍ آخر من المدينة منظرٌ عجيب آخر، فقد كان هناك صومعتان شاهقتان عريضتان، ونقشت على جدران هاتين الصومعتين صورُ ورسوم كلّ الأحداث التي ألّمت بالقسطنطينية، ونبوءة كلّ ما كان مقدرًا له أنْ يقع بها، لكن لم يوجدْ أي إنسان كان بإمكانه فهْمُ واحدةٍ من النبوءات، حتى أنّ استيلاء الفرنجة على المدينة كان مدوّنًا ومرسومًا على جدران هاتين الصومعتين، وكذلك رسوم السفن التي استخدموها في الانقضاض على المدينة، والاستيلاء عليها، لكنّ الإغريق لم يدركوا سرّ هذه الرسوم قبل وقوع الواقعة، لكن بعدما وقعت قصدوا مكانَ الصومعتين، وتأمّلوا ما عليها من رسوم وكتابة وصور سفن، فإذا بها تقول: إنّ شعبًا من ذوي الشعور القصيرة والسيوف الفولاذية سيتقدّمون من الغرب لغزو القسطنطينية».

وبعد أنْ وضع الصليبيون أيديَهم بالفعل على القسطنطينية، ألقي القبضُ على مرزوفيلوس[2]، وجاء به إلى الإمبراطور بلدوين في القسطنطينية، فسُرّ بذلك سرورًا زائدًا، وراح يستشير رجاله فيما ينبغي عليه عملُه إزاء رجلٍ أجرم في حقّ مولاه باغتياله إيّاه، فكان في وسط القسطنطينية عمودُ رخام من أطول وأحسن الأعمدة التي رأتها العين، فاتّفق الرأي على أخذ مرزوفيلوس إلى قمّته وإلقائه منه إلى الأرض على مشهدٍ من الجميع، ومن ثمّ فقد ساروا بالإمبراطور مرزوفيلوس إلى ذلك العمود، وأصعدوه إلى قمّته، وتقاطر الناس أفواجًا من كلّ حدبٍ

(١) سقوط القسطنطينية: الموسوعة الشامية. جـ١٠ ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٢) هو دوكاس مرزوفيلوس ويعرف باسم ألكسيوس الخامس، الذي لم يكن بعيدًا عن الأسرة المالكة بل كان يجري في عروقه الدم الإمبراطوري، إذ كان جده الأعلى ألكسيوس كومنين وقد زحزح مرزوفيلوس، ألكسيوس الرابع عن عرشه، ثمّ جلس هو على العرش البيزنطي إمبراطورًا، فلهاردون: فتح القسطنطينية. ص١١٧، حاشية رقم (١٣٦).

وصوب تسوقهم اللهفةُ إلى رؤية هذا الحدث، ثمّ دفعوا به من علٍ حتى إذا بلغ الأرض كانت أوصاله قد تمزّقت إربًا، وتهشّمت عظامه[١].

وقد فسّرت عملية الخلاص من بطل المقاومة القسطنطينية ضدّ الصليبيين بهذه الطريقة البشعة، على أنّها نبوءةٌ قديمة حتمية الوقوع، وأنْ لا دخل للصليبيين فيها لأنّها إرادة الرب، يقول فلهاردون عن ذلك الأمر[٢]: «والآن، إليك عجيبة كبرى، كان محفورًا على هذا العمود الذي أسقطوا مرزوفيلوس من فوقه صورٌ مختلفة، منها واحدة تمثّل إمبراطورًا يسقط منكّس الرأس، إذ كانت هناك نبوءة قديمة بأنّه سوف يُرمَى من قمّة هذا العمود أحدُ أباطرة القسطنطينية، وهكذا تحقّقت النبوءة».

لكنْ بالنسبة لكلّ ما كتبه جيوفرى فلهاردون عن غزو القسطنطينية، يمكن اعتباره مجرّد دعاية أراد أنْ يغطّي من خلال كتابه على المؤامرة التي أدّت إلى انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها لكي تحاصر عاصمة مسيحية وتستولي عليها[٣].

فقد كانت الحملةُ الصليبية الرابعة (١٢٠٢ـ ١٢٠٤م/ ٥٩٩/ ٦٠١هـ) والتي انتهت بإخضاع ونهْب مدينة القسطنطينية المسيحية واستباحتها لأعمال السّلب والحرق بمثابة فضيحةٍ وخزي مُبين ألحق بالديانة المسيحية[٤].

(١) فلهاردون: فتح القسطنطينية. ص١٤٦- ١٤٧.
(٢) المصدر السابق: ص١٤٧- ١٤٨.
(٣) بيريل سمالى: المؤرخون في العصور الوسطى. ص١٤٩.
(٤) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص١٣.

الرؤى المقدّسةُ وصليبيّةُ الأطفال

عندما كان يعودُ المقاتل الصليبي إلى وطنه، كان يقصّ على أهل بيته وأهل قريته البطولاتِ التي حقّقها الفرسان الصليبيّون، الغنائم والأسلاب التي استولوا عليها، ويثير خيالَ سامعيه بالكثير من قصص المغامرات وعن الأرض المقدسة، والمعجزات الإلهية التي تحقّقت. ولا شكّ أنّ الأطفال والمراهقين كانوا أكثر الفئات تأثرًا بهذه الروايات التي ألهبت حماستَهم وحرّكت خيالهم، وهُم بطبيعتهم أقربُ إلى عملية الاستهواء، فخيالُ الأطفال يجعلهم يعتقدون أنّهم قادرون على أنْ يأتوا بمعجزات في شتى المجالات، ربما يعجزُ آباؤهم الكبار عن أنْ يأتوا بها، خاصّة وأنّ الأطفال والمراهقين يميلون بشدّة إلى تجسيد الخيال، وتسيطر عليهم أحلامُ اليقظة[١].

بعد سقوط القدس على يد صلاح الدين الأيوبي أصبح تحرير القدس الشريف والأرض المقدسة في حاجةٍ إلى معجزة، والمعجزة لم تكن لتتمّ إلّا مع حماسة الأتقياء من الأطفال الفقراء؛ لأنّ الأطفال الذين وهبهم الله البراءة والطهارة، والعامّة الذين عاشوا في الفقر يستحقّون العيش في وئام مع السيد المسيح[٢]، وقد نشأت الفكرةُ وتغذّت على أساس أنّ ما منعته العناية الإلهية عن الكبار الآثمين سوف تمنحه للأطفال رمزِ البراءة[٣]، ففي عام ١٢١٢م/ ٦٠٩هـ، ظلّ المبشرون يطوفون بالقرى والمدن ويحضّون على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في الشرق العربي أو في أسبانيا، فكان من اليسير أنْ يتأثّر صبيٌّ شديد العاطفة بفكرة أنّ بوسعه أيضًا أنْ يكون مبشرًا، وأنْ يبزّ بطرسَ الناسك، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والعظمة ما أضحى من الأساطير. وهو ما يعرف بصليبية الأطفال[٤].

---

(١) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٤٧- ١٤٨.
(٢) المرجع السابق: مجلد ٢ ص١٥٩.
(٣) يوشع براور: عالم الصليبيين. ص٨٢.
(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم١ ص٢٥٠.

في صيف عام ١٢١٢م/ ٦٠٩هـ كان هناك صبيٌّ راعٍ، يُدعى ستيفن Stephen من قرية كلوى Cloyes بالقرب من فيندوم Vendome- بفرنسا- ادّعى بأنّ الربّ ظهر له في شكلِ حاجٍّ فقير، وأخذ منه رغيفَ خبز، فأعطاه خطابًا ليحمله إلى ملك فرنسا، فذهب الصبي إلى دير القديس دينيس St. Denis مع رفقائه من الرعاة الصبيان من نفس عمره، وهناك قام الربّ بعمل معجزاته حول هذا الصبي، وكانت المعجزات كثيرةً لدرجة أنّها أكّدت ادّعاءات هذا الصبي، وآمن به الجميع(١).

وشرعَ في التبشير بدعوته عند مدخل دير القديس دينيس ذاته، وأعلن أنه سوف يقود جماعةً من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي، وسوف تجفّ البحار أمامهم(٢)، وقد تبعه حشدٌ كبير من الأطفال، واعترفوا بهذا الصبي المقدسHoly Boy سيدًا عليهم، وكانت هذه العصبة تتكوّن من الصبيان والفتيات مع بعض الشباب وكبار السن، وجابوا المدن والقرى والقلاع في مواكب كبيرة، حاملين الأعلام والشموع والصلبان، مؤرجحين في المباخر ويغنّون بشكلٍ وطني «يا سيدنا انصر المسيحية، يا سيدنا أرجعْ لنا الصليبَ المقدس»، وعندما كان يسألهم الناس وآباؤهم إلى أين تذهبون؟ كانوا يردّدون بروح واحدة: إلى الله To Gad »(٣).

بادر بعضُ رجال الدين وبعض العلمانيين المستنيرين بإيقاف هذا المشروع المحفوف بالمخاطر، إلّا أنّ الجمهور تصدّى لهم ومنعهم بالقوة، فقد رأتِ الجماهير ضرورةَ استكمال مسيرة الأطفال، ووجّه العامةُ اتهاماتهم إلى رجال الدين القائلين لهم إذا كنتم لا تعتقدون في مشروع الأطفال وتريدون إعاقتهم عن استكمال مسيرتهم، فإنّ ذلك لن يكون إلّا بدافع الحسد والغيرة، وقد نتج عن مساندة العامة لحركة الأطفال وقوع بعض الاضطرابات. ومن المثير للدهشة أنّه في

(1) Dana.C. Munro: The Children's Crusade. The American Historical Review، vol.19 ، No. 3. Capr، 1914. P. 518.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم١ ص٢٥٠.

(3) Munro: The Children's Crusade. P. 518.

خلال شهر واحدٍ انضمّ إلى دعوة ستيفن ثلاثين ألفَ طفل، لم يتجاوز الواحد منهم الثانية عشرة من عمره، كانوا خليطًا متنوعًا من الفلاحين السّذج والرعاة، وكان منهم أيضًا صبيان انحدروا من أسرات شريفة، كما انضمّ إلى المسيرة أيضًا بعض الفاسقين والعاهرات(١).

وما من أحدٍ من الأطفال أنكر على النبي الملهم- ستيفن- أنْ تتوفر له الراحلة في سفره، بل حدثَ عكس ذلك، إذ عاملوه على أنه قديس، فعقائص شعره، وقطع من ثيابه، كانت تعتبرُ من المقدسات الدينية القيمة التي ينبغي اقتناؤها(٢)، فعندما كان ستيفن في طريقه إلى البحر المتوسط، ركب عربة محاطةً بالحراس، على اعتبار أنه مقدسٌ، وكان من حسن حظّ أي إنسان، أنْ يأخذ شعرةً من رأسه، أو خيطًا من ملابسه(٣).

في طريقهم إلى ميناء مرسيليا مات عددٌ كبير من الأطفال على جانبي الطريق، غير أنّ عدّة آلاف من الأطفال قد تدفّقوا في النهاية على مدينة مرسيليا وبات الأطفالُ ليلتهم. وفي صبيحة اليوم التالي، احتشدوا على ساحل البحر ليشهدوه، وقد انشقّ أمامهم ليعبروه إلى الأرض المقدسة، وهي النبوءة التي تنبأ بها ستيفن الذي اعتقد أنّ الله سيزوّده بمعجزة كالتي منحها لنبيه موسى عليه السلام، واعتقد أنه سيخرج بأتباعه لتخليص الأرض المقدسة سيرًا على الأقدام، مثلما خرج موسى ببني إسرائيل عبْر البحر الأحمر، ولمّا لم تحدث المعجزة استبدّ اليأسُ بالأطفال، وتحوّل بعضهم لمهاجمته، وعلا صياحُهم بأنه قد خدعهم، وأخذوا يعودون من حيث أتوا، ومع ذلك فإنّ عددًا كبيرًا من الأطفال ومعهم بعض الحجاج والقساوسة ظلّوا ينتظرون على شاطئ البحر مُعتقدين أنه بعد مرور فترة مناسبة ستحدث المعجزة(٤).

---

(١) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٦٣-١٦٤.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم١ ص٢٥١.

(3) Munro: The Children's Crusade. P. 519.

(٤) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد٢ ص١٦٦.

خلالَ هذه اللحظة العصيبة في حملة ستيفن، كان هناك تاجران هما هوجو فيريز Hugo Ferreus ووليم بوركس William Porcus عرضا على هؤلاء الأطفال أنْ يحملوهم عبر البحر دونَ مقابل، وقاموا بتعبئة سبعِ سفنٍ بالأطفال، اثنان من هذه السفن تحطّمت وغرقت، والخَمسُ الأخرى ذهبت إلى الإسكندرية وشمال إفريقيا، وهناك تمّ بيع هؤلاء الأطفال للمسلمين[1]، وشقّ الأطفال طريقهم إلى بلاد الإسلام حقًّا، ولكنْ على متن سفن تجار الرقيق المسيحيين، وتمّ بيعهم في أسواق النخاسة[2].

وهكذا أخلف الربّ وعدَه- كالعادة- مع الصليبيين، فلم يجفّ البحر أمامهم، ولم يصلِ الأطفال إلى أورشليم لتحريرها، بل خابوا خيبةً أسوأ من خيبة آبائهم، وعليه تعدّ حملةُ الطفل ستيفن الصبيانية هذه مِن أكبر الأدلة على زيف الرؤى والأحلام المقدسة، والتي حرّكت الحملة من البداية حتى النهاية، والتي تمّ اختراعها- كغيرها من الأحلام الصليبية- لتحقيق مآرب خاصّة، كالدفع بأبناء الغرب الأوروبي السّذج للانخراط في هذه الحروب الفاشلة.

لم تمضِ بضعةُ أسابيع على مبادرة ستيفن الفرنسي إلى التبشير، حتى شرع صبيّ ألماني اسمه نيقولا في الدعوة لنفس الرسالة، لكنْ بينما كان لزامًا على الأطفال الفرنسيين أنْ يستخدموا القوة لفتح الأرض المقدسة، كان على الأطفال الألمان أنْ يحقّقوا غرضهم بتحويل الكفار إلى المسيحية[3].

كان قائدُ الحملة الألمانية صبيّ من كولجن Cologne يدعى نيقولا Nicholas، ومن المحتمل أنّ حملته بدأت من وادي الراين The Rhine Valley في سنة ١٢١٢م/ ٦٠٩هـ، وكانت حملته تشتمل على الرجال والنساء والأطفال، والرضّع، لكنّ الأغلبية كانت من الشباب، وكان

(1) Munro: The Children's Crusade. P. 520.

(٢) يوشع براور: عالم الصليبيين. ص٨٢.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم١ ص٢٥٢.

أساسها طبقة الفلاحين الذين تركوا عرباتهم ومحاريثهم وقطعانهم، وسارعوا في الالتحاق بالموكب الذي سار عبْرَ بلادهم، هذا فضلًا عن الأشرار من الرجال والنساء الذين التحقوا بهذه الحملة[1].

فقد ادّعى الصبي نيقولا بأنّ الربّ وكّله نيابةً عنه بأن يقود حملة صليبية من الأطفال للأرض المقدسة[2]، وادّعى- أيضًا- بأنّ الوحي ينزلُ عليه مثل الأنبياء، وأنه كان يتلقّى الرسالة من مَلَك من السماء، وأعلن مثلما فعلَ ستيفن أنّ بإمكان الأطفال أنْ يتفوّقوا على الكبار، وأنّ البحر سوف ينفرج أمامهم فيهيئ لهم طريقًا يجتازونه إلى الأرض المقدسة، بل أعلنوا بأنّهم سيتمكّنون من السير فوق الأمواج دون أنْ تبتلّ أقدامهم[3].

تثاقل نيقولا مع أصحابه المؤمنين في السّير إلى روما، فاستقبلهم في روما الباب أنوسنت الثالث (١١٩٨ـ ١٢١٦م/ ٥٩٥ـ ٦١٣هـ) واشتدّ تأثّره بتقواهم، ولكن أثارت حماقتُهم حيرته، ففي حزمٍ مقرون بالعطف طلبَ إليهم أنه لا بدّ أنْ يعودوا على الفور إلى بلادهم، فإذا ترعرعوا فينبغي عندئذ أنْ يوفوا بنذورهم، وأنْ يسيروا للقتال من أجل الصليب[4]. وكان هؤلاء الأطفال قد صرّحوا عندما وصلوا إيطاليا بأنّهم سيعبرون البحر، وأنّه سوف يجفّ أمامهم، ويعيدوا أورشليم والأرض المقدسة، وعندما يأسوا من فكرة جفاف البحر شعروا بالإحباط، والهلاك من قلة الطعام والشراب، وتمّ سلب ونهب العديدين منهم عن طريق اللمبارديين Lembards، كما تمّ بيعُ العديد منهم، كما أنّ بعضًا من الناس الكرماء الذين أمدّوهم بما يطلبون عندما كانوا في طريقهم للقدس، تحوّلوا عنهم، ولم يعطوا لهم آذانًا صاغية، ولم يستجيبوا إلى

(1) Munro: The Children's Crusade. P. 520.

(2) Robert Duncan: The Power Of A pilgrimage. P. 44.

(٣) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٧٣- ١٧٥.

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم ١ ص٢٥٤.

توسلاتهم، وكانوا يشيرون باستهزاء إلى الفتيات العذارى اللاتي ذهبن بعذريتهنّ، ورجعنَ يحملن أطفالَ العار على صدورهن[١].

وقد استبدّ الغضبُ بالآباء الذين فقدوا أطفالهم، وأصرّوا على إلقاء القبض على والد نيقولا الذي حمله المجد الكاذب فيما يبدو على تشجيع ابنه، فقبضوا عليه وشنقوه[٢]، أمّا مصير الطفل نيقولا نفسه، فيقال إنّه قد أوفى بنذره وأبحر إلى الأرض المقدسة، وأنه شارك في الحملة الصليبية الخامسة، واشترك في القتال أثناء حصار دمياط، وأخيرًا عاد إلى وطنه، وآخرون يقرّرون أنّه مات في إيطاليا[٣].

ذكر أحدُ الكتّاب على لسان البابا أنوسنت الثالث Innocent III، تعجبه بقولـه: إنّ هؤلاء الأطفال أصابونا بالعار؛ لأننا كنّا نائمين بينما قاموا لنجدة الأراضي المقدسة[٤]، ولم يكنِ البابا أنوسنت الثالث من البساطة بحيث يترك هذا الحدث- صليبية الأطفال- يمرّ دون الاستفادة منه؛ لأنّه في أعقاب ذلك مباشرة في عام ١٢١٣م/ ٦١٠هـ أرسل مبشّريه للدعوة لحملةٍ صليبية جديدة ضدّ المسلمين لاستعادة بيت المقدس، ثمّ بدأت تظهرُ الرؤى المقدسة، ففي سنة ١٢١٦م/ ٦١٣هـ أثناء جذوة الحماس في التبشير والإعداد للحملة الصليبية؛ بدأ يتردّد ما صدر عن الشعب من رؤى عن الصلبان السابحة في الهواء، والتي ذاعت تفاصيلها، كما أنّ البابا أنوسنت الثالث نفسه كان معتقدًا بأنّ نبوءة دانيال على وشْك أنْ تتحقّق[٥].

---

(1) Munro: The Children's Crusade. PP.522 – 523.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم١ ص٢٥٤.

(٣) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٧٩-١٨٠.

(4) Munro: The Children's Crusade. P.524.

(٥) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٨٢-١٨٣.

لقد انتهتْ صليبية الأطفال نهايةً مؤلمة، تثير العطف والشفقة، فكان هناك فريقٌ من الناس الذين أظهروا تعاطفًا واضحًا مع الأطفال وأشفقوا عليهم، واعتبروا أنّ هذه الحركة كانت نتيجةَ الإلهام السماوي، أو رسالة من أحد الملائكة، أو إلى الرّؤى المقدسة، أمّا الفريقُ الآخر فقد تصوّر أنّ هذه الحملة لم تكنْ من فعل الله، ولكنها كانت من عمل الشيطان، وهكذا تحوّلت صليبية الأطفال من تعبير عن واقع اجتماعيّ وديني وسياسي للغرب المسيحي في العصور الوسطى؛ إلى مجموعةٍ من الأساطير تعبّر بدورها عن الجوّ الفكري والنفسي السائد[1].

وهكذا أكّدت الحركة الصليبية أنها «موهوبة» بالفعل في اغتيال براءة الطفولة، بالزجّ بها في أتونِ الصراع الصليبي- الإسلامي-، كما أكّدت الحركة أنها لم تغادر مرحلةً عمرية إلّا وتناولتها وأثّرت فيها، وأنّ جميع الأعمار شاركت في أكبر «تظاهرة» استعمارية فاشلة في تلك العصور، وأنّ مشاركة الجميع فيها لم تضمنْ لها النجاح بأيّ حال من الأحوال[2].

(١) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. مجلد ٢ ص١٨٢-١٨٣.

(٢) د/ محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية- دراسات في التاريخ المقارن- دار العالم العربي- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠١٠م. ص١٧٧.

رؤى وأحلامُ جماعة الفرنسيسكان والحملةُ الصليبية الخامسة

يعتبر القديس باخوميوس St. Pachomius (٢٩٢ – ٣٤٨م) وهو راهب مصريّ مشهور من رهبان المسيحية الأولى- أول مَن وضع قواعد للرهبنة- ويعتبر هو مؤسّس الديرية الاجتماعية Cenobitism، إذ بعد مرور عدة سنوات على اعتناقه المسيحية، اختار باخوميوس حياةَ العزلة، فأقام في جزيرة على النيل، حيث قيل إنّه بعد فترة طويلة من الصيام، ظهر له ملاكٌ أسرّ إليه بتعليمات لبناء دير، ووضع قواعد[١] يهتدي بها الرهبان في حياتهم، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى انضمت إليه آلافٌ كثيرة من النّسّاك، وعزّا الناس إليه المعجزات واعتبروه قديسًا، وقد ترجم القديس جيروم St. Jerome قواعد الديرية التى وضعها باخوميوس إلى اللغة اللاتينية[٢]، ومنها انتشرت الرهبنة بعد ذلك في كلّ أوروبا.

ويُستفاد من الرواية السابقة أنّ الرؤى والأحلام المقدسة كان لها دورٌ كبير في وضع قواعد العبادة والطقوس المسيحية منذ القدم، لكن لم يكن القديس باخوميوس هو الوحيدَ الذي وضع بعض قواعد الطقوس المسيحية عبر طريق الرؤى والأحلام المقدسة، بل نجدُ في المسيحية الغربية من شابهه في هذا الأمر، بل وفي عصر الحروب الصليبية ذاتها.

فقد كان هناك عيدٌ في العصور الوسطى المسيحية يُعرف بعيد جسد المسيح Corpus Christ، كان يحتفل فيه بالتناول أو الإفخارستيا[٣] Eucharist أو العشاء الأخير، وكانت القديسة جوليانا

---

(١) تؤكد العقيدة الإسلامية على أنّ فكرة الرهبنة من ابتداع رجال الدين المسيحي، وأنها ليست من التعاليم التي أمر بها السيد المسيح عليه السلام، وهو ما يفهم من قولـه تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ سورة الحديد، آية: ٢٧.

(٢) د/ محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا العطور الوسطى. ص١٠١- ١٠٢.

(٣) إفخارستيا Eucharist : كلمة يونانية الأصل تعني الشكر. وتعني الإفخارستيا في معناها الحاضر والحصري، أمّا الاحتفال بالسر الذي أسس في يوم خميس الأسرار، وإما ما يقدم ويقدس ويمنح في هذا الاحتفال (جسد ودم المسيح)، أي الخبز والخمر اللذان يقدسان. اليسوعى: معجم الإيمان المسيحي. ص٥٠.

في القرن الثالث عشر الميلادي في بلجيكا، أوّل مَن دعا إلى هذا الاحتفال، عندما قالت إنّها رأت رؤى متعدّدة ظهر فيها القمر مكتملًا فيما عدا بقعة سوداء، وأنّ المسيح أخبرها أنّ سبب هذه البقعة السوداء أنه لا يوجد عيد، ولا احتفال يقام على شرف (الإفخارستيا) وساعدها كبيرُ الأساقفة في إقامة هذا الاحتفال[١].

وتعني عقيدة التجسد Incornation باختصار: تجسد الله في يسوع المسيح أو تحوّل الكلمة إلى لحم، كما ورد في إنجيل يوحنا، وقد تصدى لدراسة هذه العقيدة وتحليلها على ضوء المعارف الحديثة؛ سبعةٌ من علماء اللاهوت وفلاسفة الدين المتخصّصين في العهد الجديد، وانتهوا من هذا التحليل إلى نتيجة خطيرةٍ صدمت العامة، وأصابت رجالَ الكنيسة المتزمتين بالذعر، فقد اتضح أنّ عقيدة التجسّد المسيحية لم تزدْ عن كوْنها مجرد أسطورة انتقلت إلى المسيحية من البيئات الثقافية المجاورة في الشرق القديم وبلاد اليونان، وقد نشرت أبحاث هؤلاء السبعة في كتاب حمل عنوان (أسطورة تجسد الإلـه) The Myth Of Jodincornate، وهُم رجال دينٍ متخصصون في الأناجيل وفي الإلهيات بشكل عام[٢]، أمّا الجماعات الرهبانية التي كان لها دورٌ كبير في استكمال فعاليات وأحداث الحركة الصليبية، فكانت جماعة الفرنسيسكان، والتي كانت الرؤى والأحلام هي الأساسَ في تكوين جماعة الرهبان هذه.

يرجع تأسيسُ جماعة الفرنسيسكان هذه إلى القديس فرانسيس الأسيزى St. Francis Of Assisi واسمه الأصلي جيوفاني فرانسكو برناردو، المولود في مدينة أسيز، وهي بلدة صغيرة في إقليم أمبريا بوسط إيطاليا، وكان مولده في عام ١١٨١م/ ٥٧٧هـ، وانتهت حياته في عام ١٢٢٦م/ ٦٢٣هـ، وقد عرف باسم أسيز نسبة إلى مسقط رأسه، وكان أبوه تاجرًا غنيًّا من تجار الأقمشة[٣]، فغدا فرانسيس شابًّا مرحًا، ثمّ طرأ على حياته ما غيّره تغيرًا كليًّا؛ إذِ اشترك ذات

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ١ ص٢٧١- ٢٧٢.
(٢) حسن طلب: سبعة ضدّ المسيح. مجلة إبداع. العدد الأول. يناير ١٩٩٨م. ص٥- ٦.
(٣) د/ محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا العصور الوسطى. ص١١٤.

يوم في معركة بين بلدته وبلدة بيروجيا Perugia المجاورة، فوقع أسيرًا، وظلّ فرانسيس في أسره مدّة، مرض أثناءها مرضًا كشف عن صفات العبقرية الدينية التي انطوت عليها نفسه[1].

وبعد شفائه بقليلٍ، صادف في طريقه متسولًا، وقد تعرّف عليه فهو شخص كان يعرفه ثريًّا فيما مضى، فاستبدل فرانسيس بملابسه ملابس المتسول الفقير، وأعطى الرجل عباءته الجميلة الأنيقة، وارتدى ملابس المتسول المهلهلة الرثة، وفى تلك الليلة رأى في نومه أنه يدخل بيتًا جميلًا يحوي جميع صنوف الأسلحة، والمجوهرات النفيسة والملابس الأنيقة، وقد رسم عليها كلّها علامة الصليب، ووسط هذا الثراء وقف السيدُ المسيح يقول له: هذه الأشياء أدخرُها لخدامي وأتباعي، أمّا الأسلحة فأنا أقلّدها لأولئك الذين يدافعون عن قضيتي، ويذودون عن رسالتي، وبعد أنِ استيقظ فرانسيس شعرَ أنّ هذه دعوة ليكون جنديًّا، وبعد هذه الرؤيا مباشرة ذهب ليصلّي في كنسية سان داميانو، وهي شبه مهدّمة، وعندما ركب ليصلي سمع صوتًا[2] يقول: فرانسيس، أعدْ بناء كنيستي التي أصبحت حطامًا. فأخذ الأمر بحرفيته، وباع بعضَ البضائع، وأعطى ثمنها لقساوسة سان داميانو ليعيدوا بناء الكنيسة، وغضب والده غضبًا شديدًا، حتى أنّ فرانسيس اضطر للاختباء في كهف عدّة أيام ليتّقي شرَّه، وعندما عاد إلى المدينة كان على حالٍ من التعب والإرهاق، حتى أنّ أحدًا لم يعرفه، وظنّه والده قد أصيب بمسّ من الجنون، فحبسه في حجرة من حجرات المنزل، لكن أمّه أطلقت سراحه ورجَتْه في الوقت ذاته أنْ يطيع والده، وأنْ يكفّ عن سلوكه الغريب، فأخذه والده إلى المطران، وفي حضور هذا المطران خلعَ فرانسيس ثيابه الأنيقة، وألقى بها تحت أقدام والده، وهو يقول: مِن الآن فصاعدًا سوف أعْرف أبًا، لكنّه يعيش في السماء. فأخذ المطران ملابس فرانسيس، وغطّى بها جسده العاري. كان

(١) هـ. فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى. جـ١ ص٢٣٤.

(٢) ذكر بأنه سمع صوت المسيح نفسه يطلب منه أنْ يتخلى عن كلّ شيء لإعادة بناء الكنيسة. ريمون ستانبلوى: مفاتيح أورشليم القدس. ترجمة/ عايدة الباجوري- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٤م. ص١١٨.

فرانسيس في ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ومن ذلك الحين بدأ فرانسيس يرعى المجذومين، ويتسول، ويهيم في الجبال، وأخيرًا: عاش في صومعة قرب كنيسة سانتا ماريانة Santa Mariana، وسرعان ما انضمّ إليه الأتباع والمريدون الذين أرادوا أنْ يعيشوا حياته البسيطة.[١] وكان فرانسيس الأسيزي كلّما ازداد بالامتناع عن إرضاء رغبات الجسد، وعن الحياة الطيبة؛ كلّما ازداد تأثيره على عقول المستمعين إليه[٢]، ثمّ ذهب فرانسيس إلى روما لينال التصديقَ على نظامه الديني، غير أنّ البابا أنوسنت الثالث اعتقد أنّه مجنون، إلّا أنّ البابا رأى في المنام أنّ الكنيسة تترنّح ولم يمنعها من السقوط سوى إمساك فرانسيس بها، وفي الحال أرسل إلى فرانسيس ووافق على نظامه وعلى حقّه في الوعظ، وازداد عددُ أتباعه فأرسل إلى البلاد الأخرى إرساليات للتبشير[٣]، وكان لفرانسيس الأسيزى هذا دورٌ مهمّ في الحملة الصليبية الخامسة كما سيُذكر لاحقًا.

في هذا الوقت، كانت قد ظهرت في الغرب الأوروبي بوادرُ الدعوة لحملة صليبية جديدة، فكان من الطبيعي وكما هو معتاد، أنْ يتمّ إحياء سلاح الرؤى والأحلام المقدسة لحثّ الناس على الاشتراك في هذه الحملة التي تُعرف بالحملة الصليبية الخامسة، والتي كان مقصدها الأساسي مصر.

يقول أوليفر أوف بادربورن عن أحداث ما قبل الحملة الصليبية الخامس في مقاطعة كوبون التي دعا فيها بنفسه لهذه الحملة[٤]: «عاشت مقاطعة كوبون حالةً من الجيشان للعمل في سبيل خدمة مُخلّص العالم من خلال عددٍ من العلامات اللائي ظهرتْ في السماء؛ لأنّه ظهر في السماء في مقاطعة كوبون، وفي أسقفية مونستر في قرية في فريزيا اسمها بيدوم Bedum في شهر آيار،

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ١ ص٣٩٤- ٣٩٥.
(٢) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ١ ص٨٥٦.
(٣) د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ١ ص٣٩٦.
(٤) تاريخ دمياط. ترجمة د/ سهيل زكار، نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر- سوريا- لم تذكر سنة الطبع. جـ٣٣ ص٣٦.

عندما جرت الدعوةُ لحمل الصليب هناك، وقتَها ظهر شكلٌ ثلاثي في السماء، شكل أبيض متّجه نحو الشمال، وآخر متّجه نحو الجنوب له الشكل نفسه واللون، أمّا الثالث فقام في الوسط وهو مظلّل بلون، وله تشعّبات الصليب، وجسد إنسان ممدّد عليه، ويداه مرفوعتان وممدودتان مع علامات المسامير على اليدين والقدمين مع رأس مطأطئ، وكان هذا الشكل الوسيط فيما بين الشكلين الأخيرين، حيث لم تظهر عليه أيّة علامات لشكل جسمٍ إنساني»، وقد ظلّ المبشرون طوال ربيع سنة ١٢١٦م/ ٦١٣هـ يجوبون أنحاءَ العالم المسيحي بالغرب، حتى امتدّ نشاطهم إلى أيرلندا واسكتلنده، وأعلن أساتذةُ جامعة باريس أنّ كلّ مَن وعد بالاشتراك في الحملة الصليبية، ثمّ حاول أنْ يتجنّب الوفاء بوعده يعتبر مرتكبًا لجريمةٍ عقوبتُها الإعدام، وتردّد ما صدر عن الشعب من رؤى عن الصلبان السابحة في الهواء، والتي ذاعت بتفاصيلها[١].

ويُعتبر أوليفر أوف بادربورن- وهو من المعاصرين للأحداث، ومن الذين اشتركوا في حصار دمياط في الحملة الصليبية الخامسة- مِن أكثر المؤرخين تفصيلًا لهذه الصلبان المرئية، يقول أوليفر أوف بادربورن[٢]: «وفي وقتٍ آخر ومكانٍ آخر في قرية في فريزيا، ظهر أثناء وقت الدعوة لحمل الصليب على موازاة الشمس صليبٌ لونه أزرق، والذين رأوا هذا كانوا أكثر عددًا مِن الذين رأوا المشهد المتقدّم، وكان المشهد الثالث في أسقفية أوترخت في قرية دكوم Dokkum حيث كان القديس بونفيس Boniface قد استشهد، ففي أثناء الاحتفال بعيد هذا القديس نفسه احتشد عدّة آلافٍ من أجل هذا القديس نفسه، ظهر صليبٌ أبيض كبير، وكأنّما حزمة ضوئية وضعَت على الأخرى بشكلٍ مُصطنع، ورأينا هذه العلامة جميعًا، وقد تحرّكت الآن بشكلٍ تدريجي من الشمال إلى الجنوب، ونحن نعتقد أنّ المشهدين الأخيرين قد ظهرا لإزالة جميع الغموض المتعلق بالمشهد الأول».

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم١ ص٢٥٨.

(٢) تاريخ دمياط: الموسوعة الشامية. جـ٣٣ ص٣٧.

وقد ذكر هذه الرؤى أيضًا مؤرخ آخر هو روجر أوف ويندوفر الذي يقول عن العلامات الذي ظهرتْ في السماء والتي أثارت مقاطعة كولون للاشتراك في الحملة الصليبية الخامسة[١]: «في اليوم السادس قبل أحدِ الشعانين[٢] استيقظت مقاطعة كولون لأداء واجبها إلى المخلص، ظهر في بلدة بيبون Bebon في فريزلاند، في السماء شكل الصليب في ثلاثة أماكن واحد متّجه نحو الشمال، ولونه أبيض، وآخر باتّجاه الجنوب له الشكل نفسه واللون، والثالث في الوسط لونه مظلم. وفي بلدة أخرى في فريزلاند اسمها فوسرهوز Fuserhuse ظهر قرب الشمس هناك صليبٌ له لونٌ أزرق، وقد رآه أناسٌ من أكثر من الذين رأوا الصلبان المتقدمة الذّكر، وظهر صليب ثالث في بلدة اسمها دوكثام Doctham. وقد رأى ذلك عدّة آلاف».

ولم يكتفِ الصليبون عن ذكر مثْل هذه الرؤى حتى بعد وصولهم إلى دمياط ونجاحهم بالرؤى السابقة في حشدِ هذه الجموع التي هاجمت دمياط في الحملة الخامسة. فعندما وصلوا إلى دمياط حدث خسوفٌ كامل للقمر، ففسر الصليبيون ذلك أنّه يشير إلى هزيمة المسلمين؛ لأنّهم تنبئوا، فعزو وقوع وقائع كبيرة إلى نقص أو زيادة تلك الظاهرة الفلكية[٣].

وفي نهاية شهر يوليو ١٢١٩م/ ٦١٦ه، وصل إلى المعسكر الصليبي أمام دمياط راهبان إيطاليان بائسان، يرتديان ثيابًا رثّة قذرة وحفاة، وباستجوابهما، أفادا بأنّ أحدهما يدعى فرانسوا من بلدة أسيز في إيطاليا، والآخر يدعى دي ريني، يريدان إظهار الحقّ للمخالفين في العقيدة، وهدايتهم لاعتناق المسيحية. فذهبا إلى معسكر المسلمين للتبشير بالديانة المسيحية، لم يصدّق الحراس المسلمون أعينهم وهُم يروْن اثنين من الغرباء يتّجهان نحوهما، اثنين من الفرنجة

(١) ورود التاريخ: الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم٢ ص٧٣٢- ٧٣٣.
(٢) أحد الشعانين Palm Sunday: هو الطواف الذي يحمل في أثنائه رجال الأكليروس- الدين- والشعب الشعانين- زعف النخيل- إحياء لذكرى دخول يسوع ظافرًا إلى أورشليم. اليسوعى: معجم الإيمان المسيحي. ص٢٠.
(٣) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم ٢ ص٧٥٣.

يرتديان ملابس رثّة وحفاة ومغطّيان بالوحل، وعزّل من السلاح، فقابل فرانسيس الأسيزى الملك الكامل الأيوبي الذي سأله عن سبب حضورهما، وماذا يريدان؟ ووسط دهشة الجميع ردّ فرانسيس بكلّ بساطة أنّه جاء يطلب من سلطان مصر، ومِن الجميع نبذ الخوف والاعتراف بالديانة المسيحية كحقيقية وحيدة[١].

وقد جرتِ المقابلة بينهما، وأخذ الراهب المسيحي يعظُ الملك المسلم ويتكلّم عن المسيح كثيرًا، ثمّ تلت هذه المقابلة مقابلاتٌ أخرى، كان الراهب يحاول فيها شرحَ الدين المسيحي وبيان فضائله، فيصغي الملك الكامل لحديثه بكلّ بشاشة وطيبِ خاطر. وكان من كرمِ أخلاق الملك الكامل أنْ يتقبّل- بصدر رحب- الاجتماع بالراهب فرانسيس الأسيزى عدّة مرّات، والإصغاء إلى مواعظه في الوقت الذي كان فيه الصليبيّون يحاصرون مدينته ويقتلون رعيّته[٢]، غير أنّ السلطان رفض العرض وأعطاه الأمان حتى يصل إلى معسكره[٣].

وأثناء وجود فرانسيس الأسيزى في المعسكر الصليبي أمام دمياط لم يبخلْ عليهم في أحلامه ورؤياه، وإن كانت في غير صالح الصليبيين، إلّا أنها كانت تتماشى مع فكره الخاصّ الداعي إلى نبذ الحرب عمومًا، ففي أواخر أغسطس سنة ١٢١٩م/ ٦١٦هـ، كانت هناك استعداداتٌ لمعركة كبيرة، وفي الليلة السابقة للمعركة نصح فرانسيس الصليبيين بعدم خوضها متنبئًا لهم بالهزيمة، وبالرغم من ذلك، وقعت المعركة، ومُني الصليبيون فعلًا بهزيمة منكرة، وأبيد أكثرُ من أربعة آلاف جندي[٤].

وقد عاد فرانسيس سالمًا إلى إيطاليا، وبعد سنوات اعتزل فرانسيس وذهب ليعيش في مغارة في الجبل، حيث مرّ هناك بكثير من الرؤى، ومن أشهرها أنّه تلقى النُّدب- أثر الجرح الباقي

(١) ستانبلوى: مفاتيح أورشليم القدس. ص١٠٩- ١١٣.
(٢) برجاوي: الحروب الصليبية. ص٤٨٥- ٤٨٦.
(٣) ستانبلوى: مفاتيح أورشليم القدس. ص١١٣.
(٤) المرجع السابق: ص١١٠.

على الجلد- المتبقية من جراح المسيح فظفر بذلك على لقب فرانسيس الملائكي، وهناك الكثيرُ من الحكايات عن ارتباط فرانسيس بالحيوانات، وحبّه لها، فهو يعظ الطيور عجيبة الله، أمّا الذئب جوبيو Gubbio الذي ظلّ يروع الريف ويتلف الزرع فقد تحدث إليه القديس فرانسيس، وأخبره أنّ الناس سوف تأتي إليه بطعامه شريطة ألّا يهاجم أحدًا من السكان، فأطاع الذئب القديس، وأصبح صديقًا للناس[1]، إلى جانب غيرها من الخرافات والأساطير التي تدلّ على مدى الهوس الديني الذي أصاب جميع فئات الغرب الأوروبي وقتذاك.

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم. جـ١ ص٣٩٦.

رؤى وأحلامُ الحملةِ الصليبيّة السّادسة

كان التيارُ الديني العاطفي لدى شعوب أوروبا هو المطيّة التي امتطتها الكنيسة في العصور الوسطى لتحقيق مآربها السياسية، وبينما فهِم الناس في أوروبا آنذاك مثل هذه الأمور على أنّها وسيلةٌ للخلاص المادي والروحي، نظرت الكنيسة إلى الفكرة الصليبية باعتبارها إحدى أدوات السياسة البابوية، في الداخل وفي الخارج على حدٍّ سواء، ولم تختفِ هذه الومضات المتهوّسة في التاريخ الأوروبي الوسيط، فقد تجلّت في سماء المجتمع الأوروبي عدّة مرّات، منها ما حدث سنة ١٢٣٧م/ ٦٣٥هـ، ١٢٥١م/ ٦٤٩هـ، ١٢٨٤م/ ٦٨٣هـ، إعلانًا عن روح التديّن الهستيري[١].

غير أنّه كانت هناك حركات للهوس الديني الأوروبي سابقة لهذه التواريخ الآنفة الذكر، إذ بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، بدأت حركة إذاعة العديد من الرؤى والأحلام المقدسة في الغرب الأوروبي لحثّ الناس للاستعداد لحملةٍ صليبية جديدة، هي الحملة الصليبية السادسة، يقول المؤرخ روجر أوف ويندوفر عن مثل هذه الرؤى[٢]: «في شهر حزيران سنة ١٢٢٧م/ ٦٢٥هـ، جرت حركة إثارةٍ كبيرة لمساعدة الصليبيين من قبل المسيحيين في جميع أرجاء العالم، وكانت أعدادهم كبيرةً جدًّا، حتى قيل بأنّ أربعين ألفًا من الرجال المجربين من إنجلترا وحدها قد زحفوا وإلى جانبهم النساء والشيوخ، حيث أظهر الربّ نفسه في السماء، بالمسامير، ومطعون بالحربة، وملطخ بالدم، ورأى هذا المشهد عددٌ كبير من الناس، وكان من بينهم تاجرٌ كان يحمل سمكًا للبيع قرب أوكسبردج Uxbirdge ، فقد أصيب بالدهشة تجاه ذلك المشهد الغريب، وقام في اليوم التالي بإخبار كلّ واحدٍ بشكل علني عن الرؤيا السماوية

(١) د/ عبد الغني عبد العاطي: صليبية الأطفال. ندوة التاريخ الوسيط. مجلد٢ ص١٨٥.
(٢) ورود التاريخ: الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم٢ ص٨٥٠- ٨٥١.

التي شاهدها، وصدق كثيرون هذه الحكاية، لكنّ بعضهم لم يصدقوها، حتى اقتنعوا بتصديقها بواسطة الرؤى الكثيرة التي ظهرت في الوقت نفسه لكثير من الناس في أماكن مختلفة».

كان فردريك الثاني Frederick II (١٢١٥- ١٢٥٠م/ ٦١٢- ٦٤٨هـ) قد تولى عرشَ الإمبراطورية الألمانية سنة ١٢١٥م/ ٦١٢هـ، وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكي يضمن تأييدَ البابا أنوسنت الثالث له في عرش الإمبراطورية، بيدَ أنّه كان عازفًا عن القيام بحملة صليبية؛ لأنّه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كلّ إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية، ولذلك أخذ يماطل في الوفاء بنذره الصليبي[١]، لذلك كان من الطبيعي أنْ تناله- بسبب موقفه من القضية الصليبية المتمثّل في المماطلة- بعض الرؤى والأحلام التي تنقص من قدره وتبيّن غضبَ الربّ عليه، يقول روجر أوف ويندوفر عن مثل هذه الرؤى[٢]: «أظهر المخلّص نفسه إلى المسيحيين، وهو معلّق على الصليب، مخروق بالمسامير، وملطخ بالدم، وكأنه كان متقدمًا بالشكوى إلى كلّ مسيحي، حول الأذى الذي لحق به من الإمبراطور». لكنْ بزواج الإمبراطور فرديك الثاني من يولاندا Yolanda ابنة الملك الصليبي الراحل يوحنا بريين ملك عكا، جعل منه ملكًا على بيت المقدس، ومسئولًا عن الصليبيين في الشرق، ومن ثمّ بدأت المراسلات بينه وبين السلطان الكامل الأيوبي، وأسفرت هذه المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين سنة ١٢٢٨م/ ٦٢٥هـ، وكان تحت أمرته جيش صغير قوامُه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل، وكانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة، التي تجنّبت إراقة الدماء أنْ عقدت هدنةً مدّتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبي وفردريك الثاني على أساس أنْ يتسلّم الإمبراطور مدينة القدس، ويبقى في حوزة المسلمين المسجدُ الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفي المقابل يتعهّد فردريك بمنع أيّ حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوروبا[٣].

(١) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٥٤.
(٢) ورود التاريخ: الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم٢ ص٨٥٥.
(٣) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٥٤- ١٥٥.

وفي عام ١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ- وهو نفس العام الذي عقد فيه فردريك الثاني المعاهدة مع السلطان الكامل الأيوبي- كتب منجّمو طليطلة[١] رسائل إلى جميع المسيحيين، كان محتواها كما يأتي: «إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح الذين يمكن أنْ تصلهم هذه الرسائل، من المعلّم جون داود الطليطلي، إنه منذ سنة ١٢٢٩م سوف تكون الشمسُ في شهر أغسطس لمدّة سبع سنوات في برج الميزان، وسوف تكون هذه شارةً على حوادث هائلة مرعبة، وسوف تكون هناك عواصف، وسوف يرتفع البحر ويصبح عاليًا بشكل غير معتاد، وسوف تظلم الدنيا كلّها، وسيصدر عنها أصواتٌ مرعبة، وسوف تدمّر عدّة مدن، وتسويها بالأرض خاصّة القاهرة وبغداد، وستكون هناك مذابح ومعارك في الشرق والغرب، وسيثور خلافٌ بين المسلمين، وسيتركون مساجدهم وسيلتحقون بالمسيحيين ويتّحدون معهم، وبناءً عليه عندما اكتشفنا نحنُ بشكلٍ عام هذه الحقائق مع أصحابنا من المنجّمين في طليطلة، رأينا من الموائم كشفُها إليكم لتقوموا بنشرها إلى أناس ليسوا على دراية بها»[٢].

ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه التكهّنات التي تم نشرها في كلّ أنحاء الغرب الأوروبي، والتي لم يقع منها أي شيء كانت عبارة عن ردّ فعل لاتفاقية تسليم القدس للإمبراطور الألماني، فلم يكن الصليبون أيضًا راضين عن هذا الصلح، إذْ كان من أشدّ الأمور عليهم، تعهّد فردريك بمساعدة الملك الكامل ومنع الإمداد الجديد إلى الإمارات الصليبية، مع أنّ تلك المعاهدة كانت لمصلحتهم، والواقع أنّ هذا الصلح جعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين إذ احتفظ كلّ منهم بأماكنه المقدسة، ولكن لم يكنْ مرضيًّا عنها لا من المسلمين ولا من الصليبيين لأسباب مختلفة[٣].

---

(١) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، وهي على شاطئ نهر تاجه- في أسبانيا حاليًا ـ. الحموي: معجم البلدان. جـ٤ ص٣٩.

(٢) روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم٢ ص٨٨٢.

(٣) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية. ص٥٠٩.

وفي الوقت نفسه، أرجع الصليبيون في الغرب الأوروبي رجوع القدس إلى حظيرة الصليبيين بموجب هذه المعاهدة، إلى الرؤى والتكهنات الآنفة الذكر، يقول روجر أوف ويندوفر عن ذلك[1]: «يتوجّب أنْ نلاحظ أنّه فيما يتعلّق بهذه الإعادة لأرض الميعاد والقدس إلى الصليبيين أنّ منجّمي طليطلة قد كتبوا، قبل حدوث هذا الفرح العام والسرور بين الصليبيين، عن التقاء الكواكب، وعن عواصف مرعبة من الريح، وأنّ العواصف سوف تتصادم، وأنّه سيكون في الوقت نفسه زلزال وكسوف للشمس وخسوف أيضًا للقمر. وبالطريقة نفسها حدث أخذ الأرض المقدسة وصليب ربنا، من قبل صلاح الدين الرجل العنيف والشديد».

(١) ورود التاريخ: الموسوعة الشامية. جـ٣٩ قسم٢ ص٨٩٥.

الحَمْلتان السابعة والثامنة ونهايةُ الوجود الصليبي في الشرق

كان الملك لويس السابع Louis IX ملك فرنسا يحبّ أنْ يستند في أحيان كثيرة إلى أقوال القديس فرانسيس الأسيزي، ولم يكن الملك يعرفه شخصيًّا فهو لم يعرف باسم (مجنون الربّ) إلّا من خلال تلاميذه، وفي الوقت الذي غطّت فيه الأسطورة على الحقيقة، فلم يكنْ يعرف شيئًا عن رحلة فرانسيس إلى مصر إلّا من خلال ما رواه (بونا فنتورا) الرئيس الأعلى لرهبان الفرنسيسكان، لكن لويس السابع اقتبس من حياة القديس فرانسيس الأسيزي- الذي كن معجبًا به- خشوعه وكرمه[1].

ويُستفاد من هذه الرواية السابقة بأنّ الملك لويس التاسع- والذي لقب بالقديس بعد ذلك- قبل أنْ يندفع بحملتيْه السابعة والثامنة نحو الشرق الإسلامي كان متأثرًا بالقديس فرانسيس الأسيزي، والذي كانت تحرّكه الرؤى والأحلام، كما ذكر آنفًا، أي أنّ لويس التاسع كان من أكبر المؤمنين بالدور الذي تقوم به هذه الرؤى في تحريك أحداث الحركة الصليبية.

في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضدّ مصر، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا بهدف احتلال مصر، وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى مصر لكي ينظم وسائل الدفاع، وكانت الاستعدادات تجرى لهذه الحملة بالتنسيق بين البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣- ١٢٥٤م/ ٦٤١- ٦٦٢هـ) منذ عام ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ، نتيجة لسقوط بيت المقدس في أيدي الخوارزمية وخضوعها للصالح أيوب. وفي مايو سنة ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ، أقلعت السفن الصليبية من قبرص- مركز تجمعها- تجاه الشواطئ المصرية، ونزل الصليبيون قبالة دمياط، التي سقطت دون قتال، وأخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة[2].

---

(١) ستانبلوى: مفاتيح أورشليم. ص٢٤٠.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٥٦- ١٥٧.

وبعد سقوط دمياط، أرسل الملك لويس في طلب مندوب البابا لإطلاعه على هذه الأخبار السّارة التي يمكن وصفها بالمعجزة، وعزوا ذلك إلى وجود المقدسات «الصليب المقدس» وسط المتحاربين، وفي اجتماع مع الأحبار أنشد الملك بصوت عالٍ نشيد «أيّها الرب»، ثمّ دخل إلى دمياط[1]، لكنْ بعيدًا عن التفاصيل الدقيقة للحملة السابعة على مصر، فإنّه ما أنْ جاء شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حتى دارت معركة رهيبة قرب فارسكور، قضت على الجيش الصليبي تمامًا، وتمّ أسر لويس التاسع نفسه، وبقي سجينًا فترة من الزمان، حتى أفرج عنه لقاء فدية كبيرة، ومقابل الجلاء عن دمياط، ثمّ رحل إلى عكا[2].

ولم يترتّب على الاستغاثات التي أرسلها القديس لويس من مقرّه بعكا إلى وطنه طلبًا للنجدة إلّا ما هو معروف بحملة الرعاة Pastoreane فقد برزت للوجود أولُ الحركات الفوضوية المعروفة باسم صليبية الرعاة، ففي عيد فصح عام ١٢٥١م/ ٦٤٩هـ، بدأ ثلاثة رجال بالوعظ بالحملة الصليبية. وكان أحد هؤلاء الرجال راهبًا مرتدًّا يدعى يعقوب[3] يقال إنّه جاء من هنغاريا- المجر حاليًا- وكان يعرف باسم «أستاذ هنغاريا»، وادّعى يعقوب أنّ مريم العذراء قد ظهرت له وهي محاطةٌ بجيش من الملائكة وأعطته رسالة، وكان يحملها دائمًا في يده مثلما قيل عن بطرس الناسك أنه كان يحمل وثيقةً مماثلة، ونقلًا عن يعقوب كانت هذه الرسالة تدعو كلّ الرعاة لمساعدة الملك لويس على تحرير الضريح المقدس، وادّعى أنّ الربّ كان غيرَ مسرور بالزهو والتباهي لدى الفرسان الفرنسيين، وأنه اختار الهملَ من العامّة لتولّي عملهم، وهجر رعاة الغنم والأبقار من الشباب والصبية والفتيات على السواء قطعانهم، وتجمعوا تحت

(١) ستانبلوى: مفاتيح أورشليم. ص٢٧٤.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص١٥٧- ١٥٩.

(٣) كان يعقوب زاهدًا نحيلًا شاحبًا ملتحيًا، في نحو الستين من العمر، وله تأثير قوي وقادر على الكلام بطلاقة كبيرة باللغة الفرنسية والألمانية واللاتينية. د/ سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. الموسوعة الشامية. جـ٤ ص١٢٠.

الأعلام الغربية التي رسمت عليها الزيارة المعجزة للعذراء، وقبل مضي زمن طويل انضم إليهم اللصوص والعاهرات والخارجون على القانون والرهبان المرتدين، ولبِسَ كثيرٌ من هؤلاء القادمين الجدد- أيضًا- زيّ الرعاة، وأصبحوا جميعًا يعرَفون باسم الرعاة، وسرعان ما كان هناك جيش، لا بدّ أنه كان بالتأكيد يعدّ ببعض الألوف[1].

وكان لهذه الحملة بعضُ ما اتصفت به حملة صليبية الأطفال من الخصائص، إذ أنها تماثلها في أنّ الذي شرع في تأليفها- من البداية- صبيّ من الرعاة، وأنه وعد مثلما فعل قائدُ الأطفال، بأنه سوف يقود أتباعه، فيجتاز بهم البحار، التي سوف تجفّ مياهها عند اجتيازهم لها، بل أشارت الروايات إلى أنّ هذا القائد الذي اتّخذ لقب «سيد البحر» لم يكن سوى ستيفن قائد حملة الأطفال، غير أنّ ما اتّسمت به هذه الحملة من شعور معادٍ للدين، وما اتّصف به الرعاة من سلوك مشين، كان أمرًا جديدًا ومُنذرًا بالشر، على أنّ الحكومة أثارها ما ارتكبته الحركة الجديدة من جرائم، فعمدت إلى قمعها دون هوادة أو رحمة، ولم ينهض أحد لنصرة القديس لويس، وفي سنة ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ كان لزامًا عليه أنْ يعود إلى فرنسا، بعد أن جاءه نبأ وفاة أمه بلانش[2].

وبعد عودته إلى فرنسا، لم يألُ الملكُ الفرنسي لويس التاسع جهدًا في الدعوة لحملةٍ جديدة ضدّ العالم الإسلامي، وقد لقي تجاوبًا من قبل البابوية، التي أطلقت يده في أموال الكنائس لتدعم بها حملته، وبالفعل انخرط في صفوفه العديد من الأمراء والبارونات[3].

غير أنّه كان هناك بعض المعارضين لحملته الصليبية الجديدة، وفي مقدمتهم كاتبُه ورفيقه في حملته على مصر المؤرخ جوانفيل، الذي حين سمع هذا الكلام من سيده لويس، أي عزمه على القيام بحملة جديدة؛ أصابه شعور بالحزن والاكتئاب. وفي إحدى الليالي كان جوانفيل مختليًا

(١)المرجع السابق: جـ٤ ص ١٢٠- ١٢١.
(٢) أرنست باركر: الحروب الصليبية. ص١٢٢- ١٢٣.
(٣) د/ سامية عامر: الصليبيون في شمال إفريقيا- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٢م. ص٩٣.

إلى نفسه وتساءل عن الدافع القوي الذي يجعل سيده يتسلّم زمام الأمر بنفسه، وتستمرّ الرواية أنّ جوانفيل ظلّ مستغرقًا في أفكاره إلى أنْ غلبه النوم، ورأى حلمًا مزعجًا مَفاده أنّ الملك والعديد من الأمراء والبارونات سيقتربون من مكانٍ يسمّى ريمز Reims، وأنّ ثمّة أحداث غير طيبة سوف تحدث لهم، فزاده هذا قلقًا على سيده وحزنًا عليه، إلى أنْ تذكّر رجلًا يشتهر بحكمته ورجاحة عقله، وكان يسمّى ويليام، فقصّ عليه هذه الرؤيا، فأيّد المؤرخ جوانفيل في أحاسيسه قائلًا له: فعلًا سيتوجّه الملك إلى قلعة ريمز، وأنّ الرب سوف يهبه المنح والعطايا، وأنه سيكون معه في كلّ خطواته. وقد توجّه جوانفيل على فوره حيث كان الملك والأمراء مجتمعين، وقصّ عليه الرؤيا»[1].

وذكر أنّ الملك كان مستمرًّا في الإعداد للحملة واتخاذ التدابير اللازمة لقيامها، ثمّ يستكمل حديثه قائلًا: «إنّ القديس لويس أعلن فجأة النبوءة على المجتمعين، وكان يجلس إلى جواره أبناؤه الثلاثة، والعديد من البارونات الآخرين، ويبدو أنهم تشاءموا حين سمعوا ذلك». يقول جوانفيل: «إنهم لم يقتنعوا بحديثي وطلبوا مني تدعيمَ ما جاء في رؤيتي من أنّ دمارًا شديدًا سوف يحدث للقوم، وأنّ الربّ سيكون بمثابة القلب والروح لمساعدة شعبه وإنقاذه، وقد حزن لويس لهذا»، وأقسم جوانفيل أنه لم يضفْ حرفًا واحدًا على الرؤيا التي تراءت له، وأنه لا يستحقّ غضبَ الرب أو القوم، ويستطرد قائلًا: إنّه حدث ما توقّع إذ ذهب الملك ورجاله إلى قلعة قرطاجنة، وحلّ بهم مرض شديد، ومات لويس نفسه متأثرًا بهذا المرض. وليس مستغربًا في مثل هذه الظروف والاستعدادات قائمة على قدم وساق للدعاية للحملة المقترحة والتبشير بها، ظهور مثل هذه الرؤى والمنامات التي هي أقرب إلى الأساطير والخزعبلات منها للحقائق التاريخية، إذ كان الهدف منها إثارة الحماسة الدينية لدى الناس للانخراط في سلك الحملة، ورغم كلّ هذا، فقد كان تحمس لويس لهذه الفكرة شديدًا بحيث أنه لم يقف كثيرًا أمام نبوءة جوانفيل،

(١)د/ سامية عامر: الصليبيون في شمال إفريقيا. ص٨٨.

بل أسرع بالعمل الجادّ من أجل إعداد القوات والأموال اللازمة للحملة[١] وكان من سوء حظّ الصليبيين أنْ أصيب لويس نفسه بالمرض، وقد أحسّ بالألم يدبّ في جسده أثناء احتضار ولده، وشعر بألمٍ شديد في معدته وإسهال، كما ارتفعت درجة حرارته، وأحسّ بدنوّ أجلـه، فحمل إلى فراشه وهو يتحامل على نفسه من شدّة الألم، واستشرى المرض في كلّ جسده، وتوفي في مساء يوم الأربعين ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م/ ٦٦٩هـ[٢].

إنّ هذا الملك الذي خلعت عليه البابوية لقب «قديس»، كان رجلًا عدوانيًّا متبربرًا، تفوح من كلماته روحُ التعجرف الممقوت، والعجرفة الفرنجية والهوس الديني الذي كان مِن أسوأ رذائل الكنيسة الرومانية في العصور الوسطى، وهي التي دعت إلى الحركة الصليبية العدوانية، منذ البداية طمعًا في موارد الشرق، وأيضًا لنشر مذهبها الكاثوليكي بحدّ السيف[٣]، حقيقة أنّ الإيمان كان من البواعث الأساسية التي دفعت الجيوش المسيحية للتوجّه صوب الشرق، على أنّ صدق إيمانهم وبساطته قادهم إلى أخطارٍ خفيّة، فقد كان النصر في الحملة الصليبية الأولى يبدو من المعجزات، لذا توقّع الصليبيون أنّ المعجزات سوف تستمرّ كيما تنقذهم كلما ظهرت المشاكل، بل إنّهم حتى في نهاية الحروب الصليبية كانوا متأكدين أنهم سوف يتلقون عونًا إلهيًّا[٤].

والواقع أنّ الفكرةَ الصليبية قد بدأت في الاحتضار، في وقتٍ أصبح فيه زمام المبادرة في قبضة العرب بعد أنْ توحّدت كلمتهم واتحدت جبهتهم واتخذوا سياسة الهجوم دفعًا للعدوان، وتعرّض دعاة الحرب الصليبية في الغرب للسب والإهانة من الناس علنًا وجهرًا، في الوقت الذي بدأ فيه الناس ينفضون من حول الكنيسة اللاتينية ويخرجون على أوامرها،

(١) د/ سامية عامر: الصليبيون في شمال إفريقيا. ص٨٨.
(٢) المرجع السابق: ص١٦٣- ١٦٦.
(٣) ستانبلوى: مفاتيح أورشليم. ص٢٤٠.
(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم ٢ ص٧٩٤.

وأصبح الجهاز الكنسي في طريقه هو الآخر نحو التداعي والانهيار، وكان المسيحيون الغربيون يسخرون من زملائهم الذين ينخرطون في حملة صليبية ضدّ العرب، وكانوا يرددون «ما الفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التي تكلّف الكثير؟ بينما ترك المرء مصالحه الخاصة في بلاده التي تدرّ عليه الربح الوفير، ليشترك في حرب لا تنتهي وقد يخسر فيها كلّ شيء»، وهُم أيضًا يقولون في أسلوبٍ لاذع على لسان أحد الرهبان الغربيين في حوارٍ باللغة اللاتينية بينه وبين الله «إنّه لأحمق غبي هذا الذي يتبعك في معركة جديدة ضدّ العرب»، وكانت مثل هذه الأقوال والعبارات اللاذعة تتردّد على ألسنة الناس في الغرب أثناء الحملات الصليبية[1].

بعد سقوط عكا لم يعدْ في الغرب الأوروبي جذوة الحماس التي تدفع أمراءه وسادتَه للمسير صوبَ الشرق، مثلما حدث أيام الحملة الصليبية الأولى والثالثة، بل إنّه ليس باستطاعة غرب أوروبا أنْ يوجّه إلى الشرق حملة شعوب مثل الحملة الصليبية الأولى، فلم يستجيبوا مطلقًا لما قد يقوم به أمثال بطرس الناسك من دعوى مُستندة إلى النبوءات، بنفس التقوى الساذجة الجاهلة التي اشتهر بها أجدادهم قبل قرنين من الزمن، فقد صدمهم ما حدث من استخدام الحرب المقدسة لتحقيق أغراض سياسية، ومع أنّ نهاية الشرق الفرنجي تعتبرًا أمرًا محزنًا، فإنها لم تثرْ ردّ فعل عنيف[2].

(١) د/ سامية عامر: الصليبيون في شمال إفريقيا. ص٨٩.
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٣ قسم ٢ ص٧١٨.

الصليبيون في بلاد الأندلس

كانت بلاد الأندلس مسرحًا لحرب صليبية غريبة، أو بمعنى آخر حركة استرداد Reconquista قام بها المسيحيون الغربيون ضدّ مسلمي أسبانيا، وقد اشتركت هذه الحروب الغربية مع مثيلاتها في الشرق في بعض الصفات الصليبية وليس جميعها، فهي حرب تحرير للأراضي المسيحية القديمة، قادتها البابوية وأيدتها، وهي أيضًا شروع في روح دينية، وضع المحاربون فيها أنفسهم تحت حماية الله، حيث هرع الكثيرون من الفرسان من مختلف دول أوروبا إلى بلاد الأندلس- أسبانيا والبرتغال حاليًا- ليساهموا في حروب صليبية، هي أقرب سبيلًا وأيسر مشقة وعناء[1].

في سنة ١٠٦٣م/ ٤٥٦هـ، منح الباب إسكندر الثاني (١٠٦١- ١٠٧٣م/ ٤٥٣-٤٦٦هـ) المحاربين المسيحيين الذين يقاتلون مسلمي الأندلس غفرانًا، وإعفاءً من التوبة، واعتبر قتالهم للمسلمين بمثابة تكفير عن خطاياهم، وكان هذا التصرف جزءًا من سياسته العامة لتشجيع الحرب ضدّ المسلمين والتي عرفت باسم حرب الاسترداد، ففي خطاب موجّه من البابا إسكندر الثاني إلى أسقف ناربون Narbonne نجده يستثني ذبح المسلمين من التحريم الكنسي العام للقتل، كما يكشف بوضوح تامّ عن مساندته للحرب الكاثوليكية ضدّ المسلمين[2].

بعد سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥م/ ٤٧٨هـ، عقد الملك ألفونسو الخامس مع سكانها المسلمين اتفاقية، غير أنّها لم تنفّذ بشكلٍ جاد، فعلى سبيل المثال، وعد الملك ألفونسو بأنه سيسمح للمسلمين بالإبقاء على مسجدهم لأداء العبادة، ولكن أثناء غيابه استطاع رهبان دير كلوني Cluny أنْ يقنعوا الملكة بتحويل المسجد إلى كنيسة مسيحية، وهذه الواقعة توضّح روح

(١) د/ علية الجنزوري: الحروب الصليبية- المقدمات السياسية- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م. ص٣١٥.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص٢٠.

الحروب الصليبية الجديدة التي دخلت إلى أسبانيا من خلال رهبان دير كلوني، وبالرغم من ذلك كانت هذه الروح مازالت في بدايتها[1].

وبعد سقوط طليلطة هُرع كثيرٌ من الفرسان النصارى من مختلف الأمم إلى أسبانيا ليساهموا في حربها الصليبية، وهي أمنيةٌ أقربُ وأيسر منالًا، وكان لذلك أثره أيضًا في تقوية جانب ملوك أسبانيا النصرانية ضدّ المسلمين، وبعد أن اندلعت شرارة الحروب الصليبية في الشرق حرّم البابا أوربان الثاني على الأسبان أنْ يشتركوا في الحرب الصليبية في المشرق؛ لأنّ أعداء النصرانية «المسلمين «يهددونهم في عقر دارهم، وكفى النصارى الأسبان فخرًا أنْ يقاتلوا المسلمين في الغرب[2]، على حدّ تعبير البابا أوربان الثاني.

هذا، وبما أنّ الحرب الصليبية قد تشابهت في بلاد الشام وبلاد الأندلس، من حيث العدو الواحد «المسلمين» والمحرّض الواحد «البابوية» والمنفّذ الواحد «أبناء الغرب الأوروبي»؛ فكان من الطبيعي والحال هذه أنْ تقترن أحداث وتداعيات الحرب الصليبية في بلاد الأندلس بالرؤى والأحلام المقدسة، مثلما حدث مع الصليبيين في الشرق، غير أنّ الرؤى والأحلام المقدسة في صليبية بلاد الأندلس كانت أقلّ بكثير من أحلام ورؤى صليبية بلاد الشام، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّ صليبي بلاد الشام كانوا مضطرّين للإكثار من هذه الرؤى والمبالغة فيها، لحثّ القواعد من أبناء الغرب الأوروبي للتحرّك نحو الشرق، لكنّ صليبي بلاد الأندلس كانوا مضطرين للدفاع عن مكتسباتهم التي اكتسبوها من حربهم ضدّ المسلمين، وكانوا يعيشون مع عدوهم «المسلمين» على أرضٍ واحدة، فلم تكن الأحلام والرؤى تمثل لهم أكثر من عامل حماسي ديني، يتمّ الرجوع إليه في أغلب الأحيان في حالات النصر على المسلمين، وليس في حالات الأزمات كما هو معتاد عند صليبي الشرق.

---

(1) Charles. E. Chapman: A history Of Spain. The Free Press. New York. U.S.A. P. 73.

(٢) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة/ محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية ١٩٩٦م. جـ١ ص١٣١- ١٣٢.

وهناك ملاحظةٌ أخرى جديرة بالذكر، وهي أنّ أغلب هذه الرؤى والأحلام المقدسة في بلاد الأندلس كانت تدور حول مساعدة القديس يعقوب لهم في معاركهم ضدّ المسلمين، وقلّما نجد رؤيا من هذه الرؤى قد تجلى فيها المسيح أو مريم العذراء- كما يدعون- أو أحد القديسين الآخرين، ولعلّ السبب في ذلك أيضًا يرجع إلى أنّ المسيحيين الأسبان كانوا يعظمون حواري السيد المسيح، القديس يعقوب، أكثر من تعظيمهم للسيد المسيح نفسه، كذلك يمكن إرجاع السبب في ذلك بأنهم قد ركزوا في أحلامهم ورؤاهم هذه على القديس يعقوب، كي يثبتوا من أسطورة وجوده ودفنه على أراضيهم، ويبطلوا حجج المشككين في ذلك.

فلم يذعْ في عصر من العصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، فحيثما أحرز النصارى في الحرب نصرًا باهرًا ظهر القديس ياقب- يعقوب- أو الفارس القديس جورج، أو السيدة العذراء في المعركة ومعها مدد غير منتظر لأولئك الذين أشرفوا على الهلاك[1]. وهو ما سنتعرّف عليه في الأوراق التالية.

(١) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس. جـ٢ ص٢٢٨.

رؤيا اكتشافِ قبر القديس يعقوب

لعلّه من الأهمّية بمكانٍ قبل الحديث عن الرؤى والأحلام التي حدثت لصليبي بلاد الأندلس، الحديث عن رؤيا اكتشاف قبر القديس يعقوب في بلاد الأندلس؛ لأنّ اكتشاف مقبرته كان نقطة فاصلة ليس في الحروب الصليبية في الأندلس فحسب، بل في تاريخ بلاد الأندلس بوجه عام، إذ تحولت أسبانيا بموجب هذا الاكتشاف إلى إحدى الأماكن والمزارات المقدسة في العالم المسيحي قاطبة، ولا يضاهيها في ذلك إلّا أورشليم القدس وروما، وبالتالي صار الدفاع عنها بمثابة الدفاع عن قبر المسيح في أورشليم، حسب اعتقادهم، وهنا مكمن الخطورة في فكرة الحروب الصليبية في بلاد الأندلس عمومًا.

تحكي الروايات القديمة «التي يصعب تميّز جانبها التاريخي من جانبها الأسطوري» أنّ القديس جيمس- يعقوب- وهو أحد الحواريين الاثنى عشر للسيد المسيح، كان قد وفَدَ إلى أسبانيا ليعظ قومها، فلما استشهد في فلسطين بعد ذلك قام بعض أتباعه المخلصين بوضع جثمانه في تابوت من المرمر فطفا هذا التابوت بمعجزة على سطح البحر- وكان أحد الملائكة يوجّه سيره- إلى أنْ قذفت به الأمواج على شاطئ جليقية[1] في بلاد الأندلس[2]، ثمّ ذهبوا به إلى موقع مدينة الشانت ياقب (سانتياجو) الحالي حيث دفن هناك، وكان القبر مكانًا يحجّ إليه الناس لعدّة سنوات، لكن عندما ازداد الاضطهاد الروماني للمسيحيين الأسبان أهملت تلك البقعة ونسيها الناس مدّة تسعة قرون[3].

---

(١) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب. الحموي: معجم البلدان. جـ٢ ص١٥٧.

(٢) دوروثى لودر: أسبانيا شعبها وأرضها. ترجمة/ طارق فوده- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع. ص٦١.

(٣) د/ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف. دار الكتاب المصري- القاهرة ١٩٨٥م. ص١٢٠.

في عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م ، ادعى راهب كان يعيش في تلك المنطقة بأنه رأى نجمًا يسطع فوق شجرة بلوط عدّة ليال متتالية، وبذهابه إلى هناك مع أسقف المنطقة، وجد مقبرةً بها رفات ثلاثة أشخاص، أحدهم مقطوع الرأس، فافترضا أنّ هذا هو قبر القديس يعقوب[١]، وقد علم هذا الراهب مما شاهده من رؤيا، وما نزل عليه من وحي- كما تروي الأسطورة- أنّ ما عثر عليه هو رفات سانتياجو- القديس يعقوب- قديس أسبانيا الخاص، وخوفًا من استيلاء قراصنة البحار- الذين كانوا ينهبون الشاطئ أحيانًا- على تلك البقايا الثمينة، فقد تمّ نقلها إلى مكان يسمّى كومبوستيلا الذي يبعد عن الشاطئ ببضعة أميال، وهناك شيد الأهالي ضريحًا بسيطًا ليضمّ رفات القديس التي ما أنْ انتشر خبرُ العثور عليها بين الأهالي حتى أقبلت جموعُ الإسبانيين إلى كومبوستيلا لتتوجه بالدعاء لعودة المسيحية إلى شبه الجزيرة بأكملها، وعندما كان الملوك والأمراء يشتبكون في معارك ضدّ المسلمين كانوا يعبرون عن شكرهم على ما يحققونه من انتصارات بأن يهبوا ضريح قديسهم بعض الذهب والمجوهرات[٢].

وحملَ هذا النبأ إلى الملك ألفونسو الثاني (١٧٥-٢٢٧هـ/ ٧٩٢- ٨٤٢م) الذي أمرَ على الفور ببناء كنيسة فوق هذا المكان. وذاعت الأسطورة في جميع الأنحاء، وصدّقها الناس دون تردد، وبدأت جماعات الحجاج ليس فقط من أسبانيا ولكنْ من جميع أنحاء العالم النصراني، تفدُ لزيارة هذا المكان المقدس الذي أصبح له أهمية تلي أهمية أورشليم وروما، وسرعان ما نمت مدينة في هذا المكان وسمّيت باسم سانتياجو دى كومبوستيلا Santiago de compostela وأصبحت تلك المدينة مؤثرًا دينيًّا وسياسيًّا وتجاريًّا في الشمال الغربي المسيحي، وكان ملوك أسبانيا من الذكاء بحيث استغلّوا هذا الكشف المثير لذلك القبر، وألهبوا حماس النصارى في معاركهم ضدّ المسلمين ممّا أعطى لهذه المعارك صفة الحرب الصليبية منذ وقت مبكر[٣]، وعرف البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥- ٨١٦م/ ١٧٩- ٢٠١هـ) بالحادث، وقام بإعلانه في رسالة له إلى العالم أجمع، وكأنّ

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٢) دوروثى لودر: أسبانيا شعبها وأرضها. ص٦١- ٦٢.
(٣) د/ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية. ص١٠٦.

ذلك الأمر كان مجهولًا من البابوية، ولم تعرف من قبل أنّ أحد الحواريين العظام يرقد جسده في أرض أسبانيا[١].

وراح أهلُ جليقية يتباهون بأنّ عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم، ثمّ شيد ألفونسو الثاني كنيسة على الضريح، ثمّ جاء بعد ذلك ألفونسو الثالث فبنى كنيسةً أخرى تتيه على سابقتها في روعتها وحسنها، واكتسبت شهرة فائقة بفضْل ما قيل عن المعجزات الجمّة التي جرت بين جدرانها، وما أوشك القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبوستيلا مزارًا ذائع الشهرة يحجّ إليه الناس من جميع الجهات وشتى النواحي[٢] ويقصده القوم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، بل وأقصى ربوع الشرق[٣]، وكان رمز ذلك القدس هو الصّدف، لذلك كانت الأصداف تشاهد وقد حاكها الأسقف الألماني على ردائه، والملك الفرنسي على معطفه، والفلاح الإنجليزي على سترته[٤].

وإذا كانت الجماعاتُ الدينية العسكرية كانت من بنات أفكار صليبيي الشرق إلّا أنها سرعان ما انتقلت إلى صليبي بلاد الأندلس[٥] وكان منها الجماعة التي تمّ تأسيسها على شرف

---

(١) المرجع السابق: ص١٢٠.

(٢) كان الحج بقصد التكفير عن الذنوب والجرائم يوجه إلى جميع المراكز المسيحية الكبرى مثل: روما حيث قبر القديس بطرس، ومزار القديس ميخائيل في مونت جورجانو- بإيطاليا- San Michele At Montegorgano، والقديس جوب- يعقوب- في كومبوستيلا في أسبانيا، والقدس وبيت لحم في فلسطين. د/ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص٢٣.

(٣) رينهرت دوزى: المسلمون في الأندلس. ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م. جـ٢ ص١٣٨- ١٣٩.

(٤) دوروثى لودر: أسبانيا شعبها وأرضها. ص٦٢.

(٥) إنّ الصفة المميزة لهذه الأنظمة العسكرية والتي كانت تخيف المسلمين وتثير قلقهم، كانت إيمانهم العميق المتعصب وعنادهم الذي يمثل «روح الصليبيين «وكان مذهبهم واضحًا وبسيطًا، ويتركّز في أنّ الكنيسة هي الحقيقة، أمّا غير المسيحيين فهم كفرة، وبالتالي فهم الأعداء، وهم الشر المطلق في مواجهة الحقيقة، كما عرفتها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ستانبلوى: مفاتيح أورشليم. ص٨١.

القديس يعقوب في بلاد الأندلس. ففي سنة ١٢٦١م/ ٦٦٠هـ، قامت جماعةٌ محاربة هي جماعة القديس ياقب S. Jacob، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدّة فرسان من قطّاع الطرق كانوا من قبل يخوضون حياةً همجية عنيفة، ويرتكبون كثيرًا من الآثام والجرائم فوعظهم رجال الدين ونصحوهم بالاستقامة والتوبة، فتابوا عمّا ارتكبوه في شبابهم من إثم، وقاموا بحماية الحجاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب في موكبوستيلا[١].

إنّ الخطر ليس في قصة اكتشاف قبر القديس يعقوب ذاتها، ولكن في تصديق الناس لها واعتقادهم فيها، ذلك الاعتقاد الذي أصبح اعتقادًا حربيًّا لدرجة أنه حرّك الرجال لكي يقوموا بأعمال لا يمكن تصديقها[٢]، كان هناك اثنان باسم يعقوب، أحدهما يدعى البار، وهو الذي طرح من فوق جناح الهيكل وضربه قصّار- أي منظف الأقمشة- حتى الموت بعصي غليظة، والآخر قطع رأسه[٣]، وهو المقصود هنا، والذي أكّد الكتاب المقدس على أنه قتل بالفعل، فقد جاء في أعمال الرسل: في ذلك الوقت بدأ الملك هيرودس يضطهد بعض أفراد الكنيسة فقتل يعقوب شقيق يوحنا بالسيف»[٤].

غيْر أنّ المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري، والذي عاش في العصور الأولى لانتشار المسيحية (٢٦٤- ٣٤٥م) والذي يعدّ حجّة في تاريخ الكنيسة قد أنكر القصة السابقة، فقد استعرض هذا المؤرخ تاريخ القديس يعقوب حتى لحظة استشهاده بأرض فلسطين في أورشليم، وذكر بأنّه لما استشهد دفنوه في الحال بجانب الهيكل، ولا يزال قبره بجوار الهيكل، ويقول مؤرخٌ آخر بأنه من المرجح أنّ يعقوب لم يفارق أورشليم، بل بقي فيها حتى نال الشهادة على يد هيرودس أجريباس عام ٤٤م، ولذلك يشكّ في صحة ما تدّعيه الكنيسة الأسبانية من أنه

(١) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس. جـ٢ ص١٧ .
(٢) د/ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية. ص١١٩.
(٣) يوسابيوس القيصري: تاريخ الكنيسة. ترجمة/ مرقس داود- مكتبة المحبة- القاهرة ١٩٩٩م. ص٥٢.
(٤) أعمال الرسل: ١٢/ ٢.

بشّر عندهم بالمسيحية، كما يشكّك صاحب هذه الرواية في معرفة أي من هذه الهياكل العظمية الثلاثة- التي تمّ العثور عليها كما ذكر آنفًا- هو للقديس يعقوب، لأنّ عظامها كانت مختلطة، وموضوعة معًا في صندوق واحد[١].

إنّ ملوك أسبانيا استغلّوا العامل الديني أحسنَ استغلال لضرب المسلمين، وللتخلّص من خطر انقسام كان قد بدتْ ظواهره في الأفق عندما حاول مطران طليطلة إليبندس Elipandus وصديقه فيلكس Felix أسقف أرجول Argel أنْ يعيدوا إلى الأذهان في عام ١٦٤هـ/ ٧٨٠م مذهبًا لاهوتيًّا قديماً يقول بأنّ المسيح كان رجلًا امتلأ بالروح المقدسة، وهكذا تبنّاه الله واختاره، وهو ما يتناقض مع العقيدة الكاثوليكية التي تؤمن بأنّ المسيح هو الله، وقد تسربت آراؤه خارج طليطلة فحطّمت الوحدة الدينية الأسبانية، وكانت هناك حاجةٌ إلى مَن يلمّ شمل الكنيسة من جديد، فكانت أسطورة هذا القبر المقدّس الذي نادي به أحد الرهبان وصدقه الملك ألفونسو الثاني لغرضٍ في نفس يعقوب[٢].

ولعلّ خير ما يردّ به على رؤيا اكتشاف قبر القديس يعقوب، وبيان زيفها ما ذكره المؤرخ الأسباني المحدث رينهرت دوزى الذي ذكر بأنه لو قدر لهذه الرواية أنْ تكون في غير هذا الوقت؛ لكانت موضع جدل وحجاج وإنكار، أمَا والعصر عصر إيمانٍ ساذج، فلم يكن أحدٌ يشكّك فيما يقول القسيس، حتى ولو كان ما يقال مناقضًا للواقع والعقل[٣].

(١) د/ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية. ص١٢١.
(٢) المرجع السابق: ص١٠٧.
(٣) رينهرت دوزى: المسلمون في الأندلس. جـ٢ ص١٣٨.

الرؤى والأحلامُ في حرب الاستردادِ في بلاد الأندلس

عندما كان الأسباني يفكّر في سانتياجو، فإنّ قلبه ينبض بالغيرة الوطنية ويتملّكه التحمسُ الديني، فلم تكنْ حركة الاسترداد في حقيقتها سوى حربٍ صليبية يقود فيها سانتياجو جحافلَ الأسبان ضدّ أعدائهم على مرّ القرون[1]، فكان الأسبان على استعدادٍ للدفاع عن القديس يعقوب في سانتياجو، ضدّ أي عدو حتى ولو كان هذا العدو هُم إخوانَهم في الدين، ففي سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشًا من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل من ولايات الراين الألمانية واللورين، إلى شواطئ جليقية، في طريقهم إلى المشرق، ورسا على مقربة من شنت ياقب، ونزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس في كومبوستيلا، ولكن أهل كومبوستيلا توجّسوا شرًّا ممّا شاع حول هؤلاء الأجانب، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب، وربما أيضًا لنهب الذخائر التي كدست في قبره، فتقلّدوا أسلحتهم، وحالوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة، فوقعت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم[2].

تعتبر موقعة كوفا دونجا عام ٧١٨م/ ١٠٠هـ، هي بداية حركة استرداد الأسبان لبلادهم من أيدي المسلمين، إذ بدأت أسبانيا المسيحية في النمو من جديد ببطء وعزم ومشقة، وفي هذه الموقعة كان من الصعب أنْ يصدق الإنسان أنْ تتغلب جماعاتٌ شبه همجية تفتقر إلى السلاح على قوات المسلمين المتفوقة، لكن أحد الأسباب التي يعزى إليها نجاحهم هو إيمانهم بأن بطلًا من أصحاب المعجزات يناصرهم في حربهم من أجل المسيحية، وهذا البطل هو القديس يعقوب أو سانتياجو St. James الذي يعرف في أسبانيا باسم سانتياجو دى كومبوستيلا ،

(١) دوروثى لودر: أسبانيا شعبها وأرضها. ص٦١.
(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس. جـ٢ ص٧٩.

والذي أصبح فيما بعد القديس الحامي للدولة الأسبانية ومصدر الكثير من شجاعة مواطنيها، وقد أقسم أكثرُ من ملك أو قائد مسيحي بأنهم رأوا القديس سانتياجو رأى العين- قبل المعركة أو في معمعتها- ممتطيًا جوادًا أبيض ملوحًا بسيف برّاق[1].

وبعد أنْ تمّ اكتشاف قبر القديس يعقوب- كما ذكر آنفًا- كان من الطبيعي أنْ يتمّ إقحام القديس يعقوب وذكر رؤياه في أغلب المعارك التي دارت بين الصليبيين الأسبان ومسلمي الأندلس، فقد ادعت المصادر النصرانية أنه في عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م، حدثت معركة بين المسلمين والصليبيين الأسبان سمتها المصادر الأسبانية باسم كلافو Clavigo وفيها تمّ النصر للملك ردمير الأول ابن الملك ألفونسو الثاني، بفضل القديس يعقوب، لكن لم يشرْ إلى تلك المعركة مصدرٌ عربي واحد من المصادر القديمة[2].

وقد ذكرت المصادرُ الأسبانية أنّ سبب انتصار الملك ردمير الأول في المعركة السالفة الذكر، أنه رأى أثناء الليل القديس يعقوب ووعده بالنصر في المعركة ضدّ المسلمين، وأنه كان يمتطي جوادًا أبيض، ويحمل علمًا أبيض، وصليبًا أحمر، وأعلن له القديس يعقوب أنّ الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية في أسبانيا مسئوليته الشخصية، وأنه حضر ليقود الأسبان في ميدان المعركة، ويذهب الخيال بالملك حتى يقول إنّ القديس بين له كيف ينظم قواته، وقد أذاع ردمير الأول تلك الرؤيا على جنوده وكانوا منهزمين في اليوم السابق، فاندفعوا وألقوا بأنفسهم على المسلمين مهللين بأعلى صوتهم «Eantiago Cierra Espana» أي أنّ القديس يعقوب هو حامي أسبانيا، وهاجموا المسلمين في قوة؛ ففرّ هؤلاء تاركين الميدان غاصًّا بجثث قتلاهم[3].

وبغضّ النّظر عن أنّ المصادر العربية قد ذكرت هذه الرواية أم لم تذكرها فلا شكّ أنّ الداعي إلى اختراعها- كما هو معتادٌ عند صليبي الشرق- هو رفع درجة الحماسة الدينية عند جموع

(١) دوروثى لودر: أسبانيا شعبها وأرضها. ص٦٠- ٦١.
(٢) د/ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية. ص١٢١.
(٣)د/ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية. ص١٢٢.

الصليبيين الأسبان، لأنه تم إذاعة هذه الرؤيا عليهم كما ذكر آنفًا، وإمعانًا في تصديقها من هذه الجموع الساذجة، كان المرأى فيها القديس يعقوب، والرائي هو الملك ذاته، وذلك كي لا يكون هناك أي مجال للطعن في صحتها من أحد.

ومِن أكبر وأشهر الرؤى التي تمّ إذاعتها بين صليبي الأندلس، والتي مازالت آثارها باقيةً حتى اليوم ما ذكرته المصادر البرتغالية عن موقعة أوريك[1] سنة ١١٣٩م/ ٥٣٤هـ، وذلك دون أنْ تذكر عنها المصادر العربية أي حرف أيضًا.

ذُكر في إحدى الوثائق البرتغالية بأن البرتغاليين اشتبكوا في مروج «أوريك» مع إسماعيل وأربعة آخرين من ملوك المغاربة وجيشهم الذي لا يحصى، فخبت شجاعتهم ويئسوا من النصر، ولم يفكروا إلّا في إنقاذ أنفسهم بالفرار، ولكن المسيح نفسه ظهر بالليل مصلوبًا للكونت ألفونسو هنريكيز[2] وأمره أنْ يتذرع بالشجاعة في القتال، ووعده بالنصر في تلك المعركة، وكلّ معركة أخرى يخوضها، كما وعده بأنْ يضع المملكة التي تقوم على أثر هذه الموقعة تحت حمايته ورحمته، وأمره بأن يجعل شعارها مكونًا من جروح المسيح الخمسة، والقطع الفضة الثلاثين التي قبضها يهوذا أجرًا لخيانة المسيح... وقد قصّ ألفونسو في اليوم التالي على جيشه نبأ هذه الرؤيا، فاشتدت عزائم البرتغاليين وسرعان ما وضعوا على رأس الأمير تاجًا من الأغصان الخضراء، ونادوا به ملكًا للبرتغال، وفاضت نفوسهم رغبة في محاربة المسلمين، وأحرزوا هذا النصر الباهر في «أوريك»، ثمّ أمر الملك أنْ يكون شعار الدروع البرتغالية[3] خمسة دروع صغيرة

(١) أوريك: اسمه الآن «كابيزا دى رايس»، وهي على ضفة نهر التاجه اليسرى، وعلى مقربة من ملتقى نهر كوبريس بنهر ترجيس- في البرتغال حاليًا- يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس. جـ١ ص٢٥٧.

(٢) ألفونسو هنريكيز: تعرفه الرواية العربية بابن الريق، وكلمة الريق هذه إنما هي تحريف لاسم هنريكيز أو أنريكو أى هنرى، وهو اسم أبيه، ثمّ هي تعرفه بأنه صاحب قلمرية، أعنى صاحب البرتغال، لأن قلمرية كانت يومئذ عاصمة البرتغال. يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس. جـ١ ص٢٥٦. حاشية رقم (١).

(٣) لا تزال هذه الدروع الخمسة المرقومة في شكل الصليب شعار العلم البرتغالي حتى يومنا. المرجع السابق: جـ١ ص٢٦٠. حاشية رقم (١).

تمثّل جراح المسيح، توضع في شكل صليب، وينقش في كلّ منها ثلاثون نقطةً من الفضة، ويعلو الصليب رمزًا لثعبان موسى- عليه السلام-، ولا تذكر الروايات الأسبانية أيضًا شيئًا عن هذه الموقعة، ويبدو أنّ صحة هذه الوثيقة- التي ذكرت موقعة أوريك- أمرٌ مشكوك فيه جدًّا، وبفرض صحتها فإنّ ما ورد فيها من الوقائع لا دليل على صحته، ولا يوجد ما يؤيّدها.[1] كما أنّ الصليبيين في الشرق قد ذكروا عبْر دروب أحلامهم ورؤياهم بأن جيوش الملائكة سكان السماء كانت تقاتل معهم- كما ذكر آنفًا في فك الحصار الإسلامي عن أنطاكيا في الحملة الصليبية الأولى وغيرها- كذلك لم يتوانَ صليبيو بلاد الأندلس عن ذكر ذلك أيضًا، وعن طريق رؤياهم أيضًا وأحلامهم المقدسة، وإن كانت بعض هذه الرؤى لم تغفل دور القديس يعقوب في هذه المؤازرة، فذكرت بأن بعضَ هذه الجيوش كانت تحت قيادة حامي أسبانيا العظيم القديس يعقوب.

فقد أنشأ الملك ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال في سنة ١١٦٧م/ ٥٦٣هـ جماعةً سميت بجماعة القديس ميخائيل ذى الجناح St. Michael Delala، ويزعمون في سبب هذه التسمية أنه رؤى أثناء موقعة شنترين ذراع يتقلد سيفًا فظنّوه ذراع قديس، ولمّا كان ألفونسو قد أحرز في هذه الموقعة ظفرًا باهرًا، ولم ينجُ من الهلاك فيها إلّا بمعجزة، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تنطوي تحت اسم الملاك ميخائيل[2]. ونسب ألفونسو الثاني نصره على المسلمين في سنة ١٢١٧م/ ٦١٤هـ، إلى معونة فرقة من الملائكة في صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم في ثياب بيض[3]، ولمّا فتح ألفونسو التاسع ملك ليون، مدينة ماردة[4] من المسلمين في سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، كان هذا النصر مثارَ دهشة حتى أنّ بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياقب «القديس يعقوب» وفرقة من الملائكة[5].

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس. جـ١ ص٢٥٨- ٢٦٠.
(٢) المرجع السابق: جـ٢ ص١٨.
(٣) المرجع السابق: جـ٢ ص٢٠٥.
(٤) ماردة: كورة واسعة من نواحي الأندلس- في أسبانيا حاليًا. الحموي: معجم البلدان. جـ٥ ص٣٨.
(٥) يوشف أشباخ: تاريخ الأندلس. جـ٢ ص١٤٧.

هذا، وحفاظًا على الحيادية وعلى الموضوعية التاريخية، يجب أنْ نذكر بأنّ الرؤى التي كانت تتحدث عن قتال الملائكة في صفوف المقاتلين لمؤازرتهم، لم تتوقفْ على الجانب الصليبي في بلاد الأندلس فقط، بل كانت هناك بعض الرؤى من هذا القبيل في الجانب الإسلامي أيضًا.

ففي صباح ٩ شعبان سنة ٥٩١هـ/ الموافق ١٩ يوليه سنة ١١٩٥م، كانت موقعة الأراك الشهيرة، فأذاع يعقوب بن تاشفين بين سائر الجند خبرَ حلم رآه في الليلة السابقة، حيث غلبته عيناه فنام في مصلّاه قليلًا، ثمّ انتبه فرحًا مستبشرًا، فبعث إلى أشياخ الموحّدين والفقهاء، فدخلوا عليه فقال لهم: إنما بعثت لكم في هذا الوقت لأبشركم بما بشّرت به من نصر الله تعالى في نومي هذه الساعة المباركة، بينما أنا راكع في مصلّاي إذ غلبتني عيناي، فرأيت في نومي كأن بابًا قد فتح في السماء، ونزل منه فارسٌ على فرس أبيض حسن الوجه والرائحة، وبيده راية خضراء منشورة قد سدّت الأفق من عظمها، فسلم عليّ فقلت له: مَن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا ملَكٌ من ملائكة السماء السابعة، جئتك لأبشرك بالفتح من رب العالمين لك ولعصابتك المجاهدين، الذين أتوا تحت رايتك في الشهادة راغبين[1]. لكن أيًّا كانت حقيقة هذه الرؤيا، فإنّه لا غبار عليها، إذ أنها تختلف عن رؤى قتال الملائكة التي ذكرها صليبيو الأندلس في شيء هام، فهي مجرّد بشارة بالنصر على الأعداء، وقد كان، أمّا خطورة رؤى صليبي بلاد الأندلس، فتكمن في مشاهدتهم الملائكة وهُم يقاتلون بين صفوفهم بالفعل، وهذا هو مصدر الشك والريبة فيها.

في سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، كانت هزيمة المسلمين في موقعة العقاب وفني بها أغلبُ عساكر المغرب والأندلس، فذهبت قوة المسلمين بالأندلس من تلك الهزيمة، ولم تنتصر لهم راية بها، فاستطال العدو عليها، فملك معاقلها واستحوذ على أكثر بلادها حتى كاد أنْ يملكها[2].

وكان للرؤى والأحلام المقدسة نصيبٌ كبير في هذه الموقعة، فقد ذكر بأنه حدثَ قبيل المعركة بقليلٍ أنْ ظهر في السماء صليبٌ كبير شديد اللمعان بشيرًا بالنصر المحقّق، بيد أنّ هذه

(١) ابن أبى زرع الفاسى: الأنيس المطرب بروض القرطاس. راجعه/ عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية- الرباط- المغرب- الطبعة الثانية ١٩٩٩م. ص٢٩٥.

(٢) ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس. ص٣١٥، ٣٥٧.

المعجزة لم يردْ ذكرها في رواية المطرانين اللذين شهدا الموقعة، ولا في رواية الملك ألفونسو، بل لم يرد ذكرها في النسخ الخطية الوثيقة للرواية الأسبانية العامة، فمن المدهش إذًا أنْ يردّدها كثيرٌ من المؤرخين الأسبان، ويعتقدون في صحتها[1].

كانت هذه هي أهمّ الرؤى والأحلام المقدسة التي نسجها صليبيو بلاد الأندلس، والتي كانت تقوم على شخصية القديس يعقوب- أو شانت ياقب كما كانوا يسمونه- ثمّ قاموا بنشرها وإذاعتها بين أبناء جنسهم، وبما أنّ العصر كان عصر الإيمان، والتعصّب الديني فقد لاقت مثل هذه الرؤى والسخافات قبولًا عامًّا عند الكثيرين من العامة والخاصة، فأتت بثمارها، وعملت على تحقيق مآرب الكنسية الغربية، التي كانت تبغي من وراء الحركة الصليبية في الشرق والغرب كثلكة العالم.

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس. جـ٢ ص١٢٣.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ الكتاب المقدس.

أولًا: المصادر العربية والمعربة

ابن الأثير: علي بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير. ت ٦٣٠هـ

١ـ الكامل في التاريخ- دار صادر- بيروت ١٩٧٩م.

بادربورن: أوليفر أوف بادربورن.

٢ـ تاريخ دمياط. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

بورشارد: بورشارد من جبل صهيون.

٣ـ وصف الأرض المقدسة. ترجمة د/ سعيد البيشاوي- دار الشروق- عمان- الأردن- الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف بن تغري بردي. ت ٨٧٤هـ.

٤ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- وزارة الثقافة والإرشاد- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع.

توديبود: بطرس توديبود

٥ـ تاريخ الرحلة إلى القدس. ترجمة د/ حسين عطية- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية- الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

ثيودريش: ثيودريش. القرن ٦هـ/ ١٢م

٦ـ وصف الأماكن المقدسة في فلسطين. ترجمة د/ سعيد البيشاوي. - دار الشروق- عمان- الأردن- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

ابن الجوزى: عبد الرحمن بن علي بن الجوزى. ت ٥٩٧هـ.

٧ـ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. تحقيق/ محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي. ت ٦٢٦هـ.

٨ـ معجم البلدان. دار إحياء التراث العربي- بيروت ١٩٧٩م.

ريموندا جيل: ريموندا جيل.

٩ـ تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ترجمة د/ حسين عطية. دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

الراهب: دانيال الراهب.

١٠ـ رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة. ترجمة د/ سعيد البيشاوي- دار الشروق- عمان- الأردن. الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

سايولف: سايولف.

١١ـ وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة. ترجمة د/ سعيد البيشاوي. دار الشروق- عمان- الأردن- الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

ابن سيرين: ابن سيرين.

١٢ـ تفسير الأحلام الكبير- دار ابن خلدون- الإسكندرية- لم تذكر سنة الطبع.

الشارترى: فوشيه الشارترى. ت ١١٢٧هـ.

١٣ـ تاريخ الحملة إلى القدس. ترجمة د/ زياد العسلي- دار الشروق- عمان- الأردن- الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

الشهابي: حيدر أحمد الشهابي.

١٤ـ تاريخ الأمير حيدر الشهابي. علق على حواشيه د/ مارون رعد- دار الجيل- بيروت ١٩٩٣م.

الصوري: وليم الصوري.

١٥ـ الحروب الصليبية. ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م.

العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ت ٨٥٢هـ.

١٦ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تصحيح/ محمد فؤاد عبد الباقي. ـ دار المعرفة- بيروت- لم تذكر سنة الطبع.

ابن العميد: المكين جرجس بن العميد. ت ٦٧٢هـ.

١٧ـ تاريخ المسلمين من صاحب الشريعة أبو القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية. - ليدن- هولندا ١٦٤٥م.

الفاسي: علي بن أبى زرع الفاسي.

١٨ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. راجعه/ عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية- الرباط- المغرب- الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

فريزنغ: أوتو أسقف فريزنغ.

١٩ـ المدينتان. ترجمة د/ سهيل زكار- نشر ضمن الموسوعة الشامية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

فلهاردون: جيوفرى فلهاردون.

٢٠ـ فتح القسطنطينية. ترجمة د/ حسن حبشي- جامعة الملك عبد العزيز- السعودية- الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

فورزبورغ: يوحنا فورزبورغ.

٢١ـ وصف الأراضي المقدسة في فلسطين. ترجمة د/ سعيد البيشاوي. دار الشروق- عمان- الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

القيصرى: يوسا بيوس القيصرى. ت ٣٤٥م.

٢٢ـ تاريخ الكنسية. ترجمة/ مرقس داود- مكتبة المحبة- القاهرة ١٩٩٩م.

كلاري: روبرت دي كلاري.

٢٣ـ سقوط القسطنطينية. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

كومنينا: أنّا كومنينا. ت ١١٤٨م.

٢٤ـ الأكسياد. ترجمة د/ حسن حبشي- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

كيناموس: يوحنا كيناموس.

٢٥ـ أعمال يوحنا ومانويل كومينوس. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية. دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

مجهول: مجهول.

٢٦ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. المعروف بالجستا. ترجمة د/ حسن حبشي- دار الفكر العربي- بيروت- لم تذكر سنة الطبع.

مجهول: مجهول.

٢٧ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد). ترجمة د/ حسن حبشي. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

مجهول: مجهول.

٢٨ـ المؤرخ الرهاوي المجهول. تحقيق د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور. ت ٧١١هـ.

٢٩ـ لسان العرب- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٩٧م.

ويندوفر: روجر أوف ويندوفر. ت ١٢٣٧م.

٣٠ـ ورود التاريخ. ترجمة د/ سهيل زكار. نشر ضمن الموسوعة الشامية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

ثانياً: المراجع العربية والمعرّبة

أثناسيوس: أثناسيوس راهب من الكنيسة القبطية.

١ـ الكنائس الشرقية وأوطانها- دار نوبار- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

أرمسترنج: كارين أرمسترنج.

٢ـ القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث. ترجمة د/ فاطمة نصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م.

إسماعيل: محمد بكر إسماعيل (دكتور).

٣ـ تفسير الأحلام في ضوء الإسلام- دار المنار- القاهرة- الطبعة الأولى٢٠٠٢م.

أشباخ: يوسف أشباخ.

٤ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة/ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

إمام: إمام عبد الفتاح إمام (دكتور).

٥ـ معجم ديانات وأساطير العالم. مكتبة مدبولي- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع.

باركر: أرنست باركر.

٦ـ الحروب الصليبية. ترجمة د/ السيد الباز العريني. دار النهضة العربية- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

بارنز: هارى إلمر بارنز.

٧ـ تاريخ الكتابة التاريخية. ترجمة د/ محمد عبد الرحمن برج. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

بالار: ميشيل بالار.

٨ـ الحملات الصليبية والشرق اللاتيني. ترجمة/ بشير السباعي- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

براور: يوشع براور.

٩ـ الاستيطان الصليبي في فلسطين. ترجمة د/ عبد الحافظ البنا. دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

١٠ـ عالم الصليبيين. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار المعارف- الطبعة الأولى ١٩٨١م.

برجاوي: سعيد أحمد برجاوي.

١١ـ الحروب الصليبية في المشرق- دار الآفاق الجديدة- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

بيومي: محمد أحمد بيومي (دكتور).

١٢ـ علم الاجتماع الديني. دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية ١٩٩٦م.

الجنزوري: علية عبد السميع الجنزوري (دكتورة).

١٣ـ الحروب الصليبية- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

دوزي: رينهرت دوزي.

١٤ـ المسلمون في الأندلس. ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

رستم: أسد رستم (دكتور).

١٥ـ كنسية مدينة الله أنطاكية العظمى- المكتبة البولسية- بيروت ١٩٨٨م.

رنسيمان: ستيفن رنسيمان.

١٦ـ تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة د/ السيد الباز العريني- دار الثقافة- بيروت ١٩٩٧م.

١٧ـ الحضارة البيزنطية. ترجمة/ عبد العزيز جاويد- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.

زكار: سهيل زكار (دكتور).

١٨ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. الموسوعة الشامية- دار الفكر- دمشق- لم تذكر سنة الطبع.

ستانبلوي: ريمون ستانبلوي.

١٩ـ مفاتيح أورشليم القدس. ترجمة د/ عايدة الباجوري. المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

سمالي: بيريل سمالي.

٢٠ـ المؤرخون في العصور الوسطى. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم. دار المعارف- الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

سميث: جوناثان ريلي سميث.

٢١ـ تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

٢٢ـ الحملة الصليبية الأولى. ترجمة د/ محمد فتحي الشاعر- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

الشرقاوي: محمود الشرقاوي.

٢٣ـ التفسير الديني للتاريخ- دار الشعب- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع.

عاشور: سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور).

٢٤ـ الحركة الصليبية- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- الطبعة التاسعة ٢٠١٠م.

عامر: سامية عامر (دكتورة).

٢٥ـ الصليبيون في شمال إفريقيا- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

عبد الحليم: رجب عبد الحليم (دكتور).

٢٦ـ العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية- دار الكتاب المصري- القاهرة ١٩٨٥م.

عمران: محمود سعيد عمران (دكتور).

٢٧ـ حضارة أوروبا في العصور الوسطي- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية ١٩٩٨م.

عوض: محمد مؤنس عوض (دكتور).

٢٨ـ الحروب الصليبية. دراسات في التاريخ المقارن- دار العالم العربي- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٢٩ـ الحروب الصليبية. السياسة. المياه. العقيدة- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٣٠ـ العلاقات بين الشرق والغرب «العصور الوسطى»- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

فشر: هـ. أ. ل. فشر.

٣١ـ تاريخ أوروبا العصور الوسطى. ترجمة/ محمد مصطفى زيادة- دار المعارف- الطبعة السادسة ١٩٧٦م.

الفغالي: الخورى بولس الفغالي.

٣٢ـ المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم- المكتبة البولسية- بيروت- الطبعة الثانية ٢٠٠٩م.

قاسم: قاسم عبده قاسم (دكتور).

٣٣ـ الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية- دار عين- القاهرة ٢٠٠١م.

٣٤ـ الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية- دار عين- القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٣٥ـ في تطور الفكر التاريخي- دار عين- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

٣٦ـ ماهية الحروب الصليبية- المجلس الوطني للثقافة- الكويت١٩٩٠م.

كانتور: نورمان كانتور.

٣٧ـ التاريخ الوسيط. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم- دار عين- القاهرة ٢٠٠٩م.

كيرنز: ايرل كيرنز.

٣٨ـ المسيحية عبر العصور. ترجمة/ عاطف برنابا- دار نوبار- القاهرة ١٩٩٢م.

لودر: دوروثي لودر.

٣٩ـ أسبانيا شعبها وأرضها. ترجمة/ طارق فوده- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- لم تذكر سنة الطبع.

ماستناك: توماش ماستناك.

٤٠ـ السلام الصليبي. ترجمة/ بشير السباعي- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

مصطفى: فاروق أحمد مصطفى (دكتور).

٤١ـ الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الثانية ١٩٨١م.

موسى: تيسير بن موسى (دكتور).

٤٢ـ نظرة عربية على غزوات الإفرنج. الدار العربية للكتاب- بيروت- لم تذكر سنة الطبع.

نخبة من العلماء: نخبة من العلماء.

٤٣ـ دائرة المعارف الإسلامية- دار المعرفة- بيروت- لم تذكر سنة الطبع.

نيكول: دونالد نيكول.

٤٤ـ معجم التراجم البيزنطية. ترجمة د/ حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣م.

اليسوعي: صبحي حموي اليسوعي.

٤٥ـ معجم الإيمان المسيحي. دار المشرق- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

ثالثًا: المصادر والمراجع الأجنبيـة

Aix :D'Albert D'Aix

- Chronique D'Albert DAix.cours pratique de M. le professeur M. Philippson university of British Columbia.library.1888.due date.

Burke: Gina Kathleen Burke.

- The justification for relic thefts in the middle ages.Miami university Oxford ، Ohio.2002.

Burr: George Lincoln Burr.

- The year 1000 and the antecedents of the crusades. the American historical review ، vol.6، no3 (apr.،1901).

Chapman: Charles.E.Chapman.

- A history of Spain.the free press.New York.U.S.A.

Duncan: Robert John Duncan.

- The power of a pilgrimage to the holy land.Drew university Madison ، New Jersey. 2001.

Krey: August.C. Krey.

- The first crusade: the accounts of eyewitnesses and participants Princeton.1921.

T**he Monk: Robert the Monk.**

- History of the first crusade.historia Iherosolimitana translation 11. Carol Sweeten ham. Ashgate publishing England.2006.

Munro: Dana. C. Munro.

- The children's crusade. The American historical review ،vol.19 ، no ،3 (apr.، 1914).

- The speech of Urban II. at Clermont ،1095.the American historical review ، vol. 11 ، no 2 (jan.، 1906).

Resor: Cynthia Williams Resor.

- Richard I takes the cross: the twelfth century culture of crusade. college of art and sciences. University of Kentucky.U. S. A. 2002.

New Catholic: new Catholic encyclopedia. Washington ، D.C.second edition.U.S.A.

رابعاً: الدوريات والندوات

إبداع: مجلة شهرية تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ندوة: ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. تحرير د/ قاسم عبده قاسم- دار المعارف ١٩٨٤م.

ندوة: ندوة اللجنة المصرية للتضامن بالقاهرة يونيو ١٩٨٧م. ٨٠٠ عام على حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
مفهومُ الرؤى والأحلام المقدسة	٩
جذورُ الرؤى والأحلام في المسيحية الغربية	١٥
العقليةُ الأوروبية قبلَ اندلاع الحروب الصليبية	١٨
الرّؤى والأحلامُ الممهّدة للحركة الصليبية	٢٢
دورُ الرّؤى والأحلامِ المقدسة في الدعوة للحركة الصليبية	٢٦
حلمُ بطرس الناسك ودورُه في الدعوة للحروب الصليبية	٣٢
فيروز الزّراد وحلمُ سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين	٣٦
حلمُ اكتشافِ الحربة المقدسة	٤١
تتابعُ الرّؤى والأحلام لفكّ الحصار عن أنطاكيا	٤٩
فكّ الحصار عن أنطاكية وقتالُ الملائكة والقديسين	٥٥
حلمُ الهجوم على عِرْقة واختبارُ النار	٥٨

رؤى وأحلامُ سقوط بيت المقدس ٦٣
رؤى وأحلامُ الذخائر المقدسة ٦٩
رؤيا النارِ في القبر المقدس ٧٣
الرؤى والأحلامُ في بداية الاستيطانِ الصليبي في الشرق ٨١
دورُ الرّؤى والأحلام في الدعوةِ للحملة الصليبية الثالثة ٨٦
أثرُ الرؤى والأحلامِ في صليبيّة ريتشارد قلب الأسد ٩٠
رؤى وأحلامُ استيلاءِ الصليبيين على القسطنطينية ٩٤
الرؤى المقدّسةُ وصليبيّةُ الأطفال..... ١٠٠
رؤى وأحلامُ جماعة الفرنسيسكان والحملةُ الصليبية الخامسة ١٠٧
رؤى وأحلامُ الحملةِ الصليبيّة السّادسة..... ١١٥
الحَمْلتان السابعة والثامنة ونهايةُ الوجود الصليبي في الشرق ١١٩
الصليبيون في بلاد الأندلس..... ١٢٥
رؤيا اكتشافِ قبر القديس يعقوب ١٢٨
الرؤى والأحلامُ في حرب الاستردادِ في بلاد الأندلس..... ١٣٣
المصادر والمراجع..... ١٣٩